العلمانية

أصل الإرهاب
والاستبداد الحديث

العلمانية

أصل الإرهاب والاستبداد الحديث

مختارات ترجمها وحررها وقدم لها:

ممدوح الشيخ

هذه المختارات

هذه مختارات لكتاب غربيين تطرح تصوُّراً لظاهرة الإرهاب مغاير تماماً لما هو سائد في الخطابين التحليلي والإعلامي في الشرق والغرب معاً، ومعظم المختارات مقالات كُتِبت ونُشِرت في الصحافة الغربية كقراءات في كتاب مهم جداً صدر في بريطانيا في العام 2005 هو كتاب "الإرهاب: حرب أهلية في الثورة الفرنسية" للمؤرخ البريطاني المرموق دافيد أندرس.([1])

([1]) من الكتب المهمة التي صدرت بالإنجليزية في التوقيت نفسه تقريباً متنبياً رؤية مشابهة، كتاب: "الإرهاب المقدس" (مطبعة جامعة أوكسفورد) لتيري إيغلتون وهو ناقد ومعلق ثقافي معروف. وكتابه عميق في تحليله لفكرة الإرهاب، وهو يأخذ مفهوم الإرهاب وينقله من حقل الاستخدام السياسي المبالغ فيه، وبخاصة بعد هجمات سبتمبر 2001 وإعلان الرئيس الأمريكي جورج بوش حربه علي ما أسماه الإرهاب الدولي، مبتعداً عن هذا الفهم المبالغ فيه.

ويقول إيغلتون إن الإرهاب فكرة سياسية، وإنه ظهر بهذا المفهوم في الثورة الفرنسية، فمن إرهاب اليعاقبة ورثنا كلمة "الإرهابي".

....

وكتاب المختارات هذا مقدمة لدراسة أوسع تصدر قريباً بإذن الله عن "الوجه الآخر للثورة الفرنسية"، وقصة أول هولوكوست في العصر الحديث، حيث كانت هذه الثورة في الحقيقة بداية عصر الإبادة الجماعية للمخالفين بالشكل الذي عرفه التاريخ الحديث. وقد قمت بترجمة المادة من الإنجليزية وحررتها.

والله الموفق.

ممدوح الشيخ.

وإذا فهمنا أن الإرهاب كمفهوم سياسي بدأ في الثورة الفرنسية فهذا يقودنا للقول أنه بدأ كارهاب دولة، وهو الشكل الذي اتخذه في معظم الاحيان.

(الإرهاب المقدس لتيري ايغلتون: عن الفكرة المتعالية للارهاب.. ومجانين البيت الابيض – 10/ 10/ 2005): الرابط:

http://www.sahafi.jo/arc/art1.php?id=55d9127215d26ae4bc29cedf4a5df25a063b4d31)

"مأساة الكذاب ليست في أن أحداً لا يصدقه، وإنما في أنه لا يصدق أحداً".

جورج برنارد شو

تمهيد

لهذا الكتاب سياقات عدة.

السياق الأول: سياسي/ داخلي كان متوقعاً بعد ثورات الربيع العربي وما نجم عنها من صراع على وجدان الشعوب بعد عقود من "التأميم" البوليسي لمساحة العمل العام بمعناها الواسع، تلك المنطقة التي لم تمت أشواقها المكبوتة بل انطلقت لتشعل معركة يراها كل طرف يخوضها: مصيرية!

وهناك سياق آني/ فرعي يتمثل في تصريحات نشرها الإعلام المصري في 28 يوليو 2013 للكاتب المصري حلمي النمنم أثارت ضجة كبيرة. التصريحات كانت جزءاً من مداخلة له في ندوة حول الدستور المصري بثتها قناة Ontvlive المصرية. وانطلق الجدل حول الدستور منذ أعلن الفريق أول عبد الفتاح السيسي وزير الدفاع المصري، في بيان شهير تلاه في 3 يوليو، عزل الرئيس المصري المنتخب الدكتور محمد مرسي وبدء مسار انتقالي يتضمن تعطيل العمل بالدستور

المصري المثير للجدل الذي تم إقراره في العام 2012. وبهذا الإعلان فتح الباب لمقترحات تعديل الدستور واعتبر كثير من العلمانيين المصريين – وبينهم حلمي النمنم – أن هوية مصر كانت أحد أكثر القضايا إثارة للجدل وأن هوية مصر يجب ألا تكون "إسلامية". حلمي النمنم قال بوضوح إنه يرفض القول بأن الشعب المصري متدين بالفطرة مؤكداً أن مصر "علمانية بالفطرة". وكانت الندوة المشار إليها قد انعقدت بعد قليل من "مجزرة المنصة" التي جرت وقائعها بعد ساعات من انتهاء مظاهرات نظمت استجابة لطلب من وزير الدفاع، حيث قال إنه يريد أن يحصل على "تفويض" من الشعب المصري لمواجهة الإرهاب المحتمل. وقد قتل في المجزرة من أنصار الرئيس المعزول محمد مرسي، عدد يتجاوز المئة معظمهم قتلوا برصاص "قناصة"، فضلاً عما يزيد عن ألف جريح.

في هذا السياق كان صادماً جداً – على المستوى الأخلاقي أولاً – أن يقول النمنم إن علينا أن نكون صرحاء وأن هناك دماء أخرى سوف تُسفَك مضيفاً أن الحرية لها ثمن وأن الدولة الحديثة لها ثمن!

كلام النمنم ترجمة مندفعة وخشنة، ولا تخلو من خفة، لإشكالية من أعقد إشكاليات الفكر الحديث هي ما يسميه الكتاب الغربيون "ثمن التقدم" أو "ثمن التحديث". ولأن القضية هي في أصلها قضية فكرية يتم طرحها في عالم السياسة لتبرير "الأسوأ". ولذا كانت هناك ضرورة لكتابة هذا التمهيد.

فالكتاب نشر للمرة الأولى في الولايات المتحدة الأمريكية عبر إحدى شركات النشر الخاصة ومتاح "ورقياً" على موقع Amazon.com.([2])

([2]) الكتاب متاح – دون هذا التمهيد – منذ 17 أغسطس 2012 على الرابط:

....

.......وقد عالج المفكر العربي الإسلامي الراحل الدكتور عبد الوهاب المسيري هذه القضية في "موسوعة: اليهود واليهودية والصهيونية" تحت عنوان "فشل علم الاجتماع الغربى فى تطوير نموذج مركب وشامل للعلمانية" قائلاً إن علم الاجتماع الغربي والعلوم الإنسانية الغربية ككل جزء من المجتمع الغربي، أفقها محدد بأفق مجتمعها في معظم الأحيان، ولذا نجد أن علم الاجتماع الغربي يتأرجح بين العلمانية الشاملة

---

http://www.amazon.com/Secularism-Origin-modern-terrorism-tyranny/dp/1479106003/ref=sr_1_21?s=books&ie=UTF8&qid=1376323257&sr=1-21&keywords=mamdouh+al-shikh

ونشرت جريدة الأهرام عرضاً لمحتواه في صفحة كاملة في 14 سبتمبر 2012. وهو على الرابط:

http://digital.ahram.org.eg/Policy.aspx?Serial=1024038

والجزئية، فيُنظـَر إلى العلمانية باعتبارها "فصل الدين عن الدولة" أو باعتبارها "مجموعة أفكار وممارسات ومخططات واضحة محددة" أو باعتبارها "فكرة ثابتة لا مثالية نماذجية آخذة في التحقق". كما أن علم الاجتماع الغربي ورث أيضاً الاختلاط في الحقل الدلالي لكلمة "علمانية". ويضيف المسيري أن كل هذه العناصر ساهمت دون شك في أن يفشل علم الاجتماع الغربي في أن يطوِّر نموذجاً شاملاً ومركباً للعلمانية. لكن أهم العناصر التي ساهمت في ذلك الإخفاق أن مرجعية علم الاجتماع الغربي والعلوم الغربية الإنسانية ومنطلقاتها هي العلمانية الشاملة. فعلى سبيل المثال، ترى هذه العلوم أنه يجب فصل الواقع (الحياة الدنيا) عن كل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية حتى تصبح العلوم محايدة، خالية من القيمة، اتجهت العلوم الاجتماعية والإنسانية الغربية نحو النماذج الكمية والنماذج المادية لتركز الاهتمام على تلك الظواهر التي توجد داخل هذا

النطاق وحسب. ومن هذا المنظور تم تقويض مفهوم الإنسانية المشتركة إلى أن اختفى مع سيادة الواحدية المادية الموضوعية. ثم انتهى بأن ثبتت هذه العلوم ميتافيزيقا العلمانية الشاملة من إيمان بحتمية التقدم وبأن العقل المادي لا نهائي قادر على تسجيل كل شيء... إلخ. لكل هذا أصبح علم الاجتماع الغربي نفسه جزءاً من المنظومة العلمانية الكلية الشاملة لا توجد مسافة تفصل بين الواحد والآخر. فبدأ يدرك الواقع كأجزاء متناثرة، وخصوصاً أن مصطلح "علمانية" كان قد عُرِّف وتكلّس قبل ظهور كثير من الظواهر العلمانية الأساسية. ومما زاد الموضوع تفاقماً أن الإنسان الغربي حينما بدأ مشروعه التحديثي كان ممتلئاً بالتفاؤل بشأنه، وكان يتوقع أن يحقق له هذا المشروع السعادة الكاملة أو على الأقل قسطاً كبيراً من السعادة. ولذا، حينما كانت تظهر جوانب سلبية، كان يصنفها على أنها "ظواهر هامشية" أو "نتائج جانبية" أو "ثمن معقول" للتقدم. ورغم تزايد الجوانب السلبية، إلا أنه استمر في التركيز

على المتتالية المثالية السعيدة فتحكمت في إدراكه وأحكامه، ومن ثم استمر في تهميش الجوانب السلبية وتهميش المصطلحات التي تشير إليها وظلت هذه المصطلحات، بمدلولها السلبي، خارج نطاق عملية تعريف – أو إعادة تعريف – العلمانية.

......ويمكن أن نضيف أيضاً أن علم الاجتماع الغربي قد تحددت مقولاته الإدراكية والتحليلية قبل أن تتم عملية التلاقي بين الرأسمالية والاشتراكية وقبل أن تظهر الوحدة الكامنة وراء كثير من الظواهر. ولذا كان علم الاجتماع الغربي يتصور أن الثنائيات التي ظهرت داخل المنظومة العلمانية الغربية ثنائيات حقيقية ذات مقدرة تفسيرية عالية. فكان يرصد الواقع من خلال نموذج الإنسانية مقابل الطبيعية، ونموذج الرأسمالية مقابل الاشتراكية، وهكذا دون إدراك الوحدة النهائية الكامنة فيما بين هذه الثنائيات، ودون إدراك أنها ثنائيات واهية في طريقها إلى الزوال بفعل عوامل التعرية التاريخية

وآليات التلاقي. لكل هذا نجد أن علم الاجتماع الغربي – والكلام للمسيري – يرصد الواقع العلماني (في الشرق والغرب) لا باعتباره كلاً متكاملاً، وإنما باعتباره مجموعة من ظواهر مختلفة مستقلة لها تواريخ مستقلة. فكلما اتضحت معالم ظاهرة ما فإنه كان يحصر سماتها ويُطلق عليها اسماً، الظاهرة تلو الأخرى، دون أن يربط بعضها ببعض داخل نموذج تفسيري واحد. ولذا ظهرت نماذج تفسيرية متعددة، ونجد أن هناك حديثاً عن "الترشيد" مستقلاً عن حديث "الاستنارة" وعن حديث "التفكيك" وعن حديث "العلمانية"، ولم يتم رصد علاقة مفهوم الإنسان الطبيعي وتعاظم نفوذ الدولة القومية بضمور الحس الخُلقي ثم بضمور الحس السياسي والإباحية وتزايد الحياد والتجريد والتنميط. وأصبح تاريخ العلمانية مستقلاً تماماً عن تاريخ الفلسفة الغربية الحديثة وعن تاريخ الاستعمار الغربي وحركات مثل النازية والصهيونية. وقد ظهر عدد لا حصر له من المصطلحات يُشير بعضها إلى الثمرات الإيجابية لعملية

التحديث أو الترشيد أو العلمنة، أشهرها التقدم وزمانية كل الظواهر ونسبيتها. في الوقت نفسه، ظهرت مصطلحات عديدة تشير إلى بعض نتائجها السلبية غير المقصودة أو إلى ظواهر سلبية مرتبطة بها أو ناجمة عنها، من بينها: ثمن التقدم – ضمور الحس الخلقي – هيمنة القيم النفعية – تفشِّي النسبية المعرفية والأخلاقية – سيطرة الدولة على الفرد من خلال أجهزتها العديدة. ورغم أن نطاق عمليات العلمنة قد اتسع، ورغم أن الكثيرين اتضح لهم أنها تشكل في مجموعها منظومة متكاملة يمكن رؤيتها في مقدمتها وحلقات تطورها ونتائجها الإيجابية المقصودة والسلبية غير المقصودة، ورغم أن المتتالية المتحققة التي انتهت بالإمبريالية ونهب العالم والإبادة النازية والتلوث البيئي والإباحية وتآكل الأسرة وانتشار المخدرات والجريمة والإيدز، التي ظهرت بدلاً من المتتالية المثالية المُفْتَرَضة السعيدة، ورغم "ثمن العلمانية" الشاملة الفادح، فإن

الإنسان الغربي لم ير الوحدة الكامنة ولم يتوصل إلى نموذج تفسيري شامل مركب متكامل لظاهرة العلمانية، واكتفى بمراجعة كثير من المصطلحات التي سكها لوصف واقعه التحديثي في ضوء ما تَكشَّف له من خلال عملية التحقق التاريخي. ولذا، فهو لم يعد يتحدث عن "الاستنارة" وحسب، وإنما أصبح يتحدث أيضاً عن "الاستنارة المظلمة". ولم يعد يتحدث عن "العقل الخلاق" وحسب، وإنما يتحدث أيضاً عن "العقل الأداتي" الذي لا يكترث بالإنسان ولا بالمضمون الخلقي لعملية الترشيد. .....كما أنه لا يتحدث عن "التقدم" وحسب، وإنما يتحدث أيضاً عن "ثمن التقدم".([3])

([3]) الموقع الإليكتروني للدكتور عبد الوهاب المسيري:

الرابط:

http://www.elmessiri.com/encyclopedia/JEWISH/ENCYCLOPID/MG1/GZ4/BA3/MD1/M0000.HTM

وهذا أحد الفروق الرئيسة بين خطابين: خطاب عالِم مثل الدكتور عبد الوهاب المسيري وخطاب "دراوايش العلمانية"!!.

ورغم أنني أكتب عن هذه الظاهرة التي تكشف قدر الابتسار المتعمد في "صورة العلمانية" في كتابات دعاتها العرب منذ العام 2005، إلا أن كلمات حلمي النمنم تؤكد أن ما استشرفته منذ صدور الكتاب للمرة الأولى في 2012 كان استشرافاً صائباً، وأن العلمانية تعني – ضمن ما تعني – استحلال الدم!

ومن المقاربات الذكية جداً لقضية علاقة الدين بالسياسة والنتائج التي تترتب على قطع هذه الصلة على النمط الذي أسست له الثورة الفرنسية ما سجله الباحث نافيد س شيخ بقوله: "قام عالم السياسة، الأستاذ في جامعة هارفارد، ساموِيل هنتينغتون من خلال مؤلفه البالغ التأثير "صدام الحضارات: وإعادة صياغة النظام العالمي" (1996) بإعادة ابتكار فهم أرنولد توينبي للتاريخ باعتبار أنه، لا يسيَّر فقط من قِبَل البنى المادية غير الشخصية – الإقليم ورأس المال والسكان والموارد الطبيعية – بل تؤثر في مجراه أيضاً البنى الفكرية فيما بين الأشخاص. وقد بدا هذا الإدراك مدعوماً بالمشاهدة التجريبية، ثم ما لبث أن ملأ الثغرات الفكرية والسياسية، مما خلق بروزاً هاماً في أعقاب الانفجار الداخلي للشيوعية التي كان يدعمها الاتحاد السوفيتي. وكان كثيراً ما يشار عادة إلى إعادة الدين إلى وضعه المؤثر في

المجتمع – باعتباره البنية الفكرية الوحيدة الأكثر استقراراً في التاريخ الإنساني– على أنه "الانتقام من الله"، ولكن أصبح بالنسبة لعلماء الاجتماع والمؤرخين على حد سواء، من المستحيل – من الناحية العلمية – أن يفصل المتغير السماوي الديني عن الواجبات الأرضية المادية في أعراف أهل الأرض الاجتماعية السياسية المشوشة. وبالرغم من ذلك فإن رصداً عرضياً من شأنه أن يوحي بأن تكون التأويلات العقلية عن الله (في السياسة، الحق المطلق) مسلمة ضرورية لجميع التشكيلات النزاعية تقريباً، من مستوى النزاع بين دولة وما يجاورها إلى مستوى النزاع العابر للدول"([4]).

([4]) تعداد الضحايا: استعراض كمي للعنف السياسي عبر الحضارات العالمية – نافيد س شيخ – المركز الملكي للبحوث والدراسات الإسلامية – الأردن – 2009 – ص 1، 2.

وهذا الكلام تلخيص دقيق وأمين لتحوُّل تاريخي جبار دارت عجلته فعلاً، وهو تحوُّلٌ يدركه جيداً "ذئاب العلمانيين" وينكره دراويشهم، ومن يدركون حقيقة هذا التحول ويعرفون أبعاده جيداً، يقاتلون المعركة الأخيرة في العالم العربي بأمل منع هذا التحول من اجتياح الشرق الأوسط، ويرون أن الحل هو "شيطنة" الإسلاميين وأمريكا معاً.

وهذا التحول هو ببساطة عودة الصلة بين الدين السياسة على نحو ما، وهو قطعاً يختلف من مجتمع إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى، لكن وجهة التحول واحدة.

....

ومن القضايا التي أثارها الربيع العربي بقوة ما إذا كانت ثوراته – وبخاصة ثورة الخامس والعشرين من يناير في مصر – تشكل نهاية لمائتي عام كانت خلاله

الدولة الوطنية "المركزية" (دولة محمد علي)، السمة المميزة لهذا الجزء من العالم، وما إذا كانت هذه الدولة قد انتهت إلى غير رجعة، وأن دولة أخرى أكثر إنسانية، وأكثر كفاءة تتخلى عن الدور الديناصوري للدولة التي لم تنجز لشعوبها إلا الفشل والفساد والقسوة.

في البداية، عانت الثورة المصرية من الافتقار إلى القائد بمعنييه:

المتعين (القائد)

والمجرد (البرنامج).

وهذا الغياب مكـَّن تحالفاً من العلمانيين المتشددين وأصحاب المصالح وبقايا نظام مبارك من أن يقوموا بعمل منظم هدفه إنشاء دولة "أولجاركية" معادية للديموقراطية عداءً تاماً، وهي دولة خارجة من قلب استبداد العصور الوسطى، دولة تتقاسم السلطة فيها نخب: عسكرية وبيروقراطية ومالية "تصادر" القسم

الأكبر من الفضاء العام – بمعناه الشامل – باسم "الأمن القومي" متحالفة مع نخبة سياسية علمانية (يسارية وليبرالية) هشة ومعزولة، وهذا "التحالف الأوليجاركي"، في النهاية، لن يترك للسلطات المنتخبة إلا "الفتات".!

وعندئذ يُعاد إنتاج دولة محمد علي بآليات قمع أكثر كفاءة.

وقد حرص كثير من العلمانيين على تأكيد أن الأنظمة الغاربة في الربيع العربي لم تكن علمانية، رغم أن تحالف معظم النخبة العلمانية معها – صراحة أو ضمناً – كان واضحاً. ويتجاهل هؤلاء شواهد عديدة على أن العلمانية العربية منيت بهزيمة حقيقية بالربيع العربي. ولنقرأ هذا المقتطف من تقرير نشرته "الحياة اللندنية" عن زيارة للرئيس الفرنسي جاك شيراك إلى ليبيا. فخلال هذه الزيارة "قدم الرئيس الفرنسي جاك شيراك إلى نظيره الليبي معمر القذافي مجموعة

مؤلفات الكاتب والفيلسوف الفرنسي مونتسكيو، مؤلف "روح الشرائع" المغرم بالحريات والديموقراطية... ... ورداً على سؤال عن سبب اختياره تقديم هذه الهدية، قال شيراك، السياسي المحنك، خلال مؤتمره الصحافي في طرابلس: "أعرف أن الرئيس القذافي ملمّ بأعمال مؤلفات مونتسكيو، ووجدت هذه الطبعة، علماً بأنني أعرف أنه قد يكون قرأ كل مؤلفات مونتسكيو، ولكنها طبعة جميلة يمكن أن يضعها في مكتبته".([5])

فهل كان القذافي علمانياً؟

قطعاً نعم.

(5) مونتسكيو من شيراك إلى القذافي – تقرير: رندة تقي الدين – جريدة الحياة اللندنية – 1/ 12/ 2004.

ولكن الأهم – في تقديري – ما قاله أحد الشهود الليبيين في المحاكمة التي تمت في كامب زيست بهولندا للمتهمين بتفجير الطائرة الأمريكية – طائرة بان أميركان – التي عرفت إعلامياً باسم: "قضية لوكربي"، فحسب عبد المجيد جعايكة الشاهد الرئيس للإدعاء في قضية لوكربي فإن "العقيد الليبي معمر القذافي متورط في مؤامرة ماسونية عالمية". و"قال محامو الدفاع في القضية إن جعايكة، وهو عميل سابق للمخابرات الليبية انشق ويعيش حالياً في الولايات المتحدة، قد أدلى بهذه المعلومات خلال مقابلاته مع مسؤولين في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية".([6])

([6]) **جعايكه: القذافي متورط في مؤامرة ماسونية – تقرير – الموقع العربي لهيئة الإذاعة البريطانية –** BBC Arabic News News **– 27/ 9/ 2000 – الرابط:**

http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/news/newsid_945000/945391.stm

و"قال ريتشارد كين محامي الدفاع عن الأمين خليفة فحيمة وهو المتهم الثاني في القضية، إن جعايكه أبلغ عملاء المخابرات الأمريكية أن الزعيم الليبي مشارك في مؤامرة ماسونية. وسأل كين الشاهد عن كيفية معرفته بضلوع الزعيم الليبي في مؤامرة كهذه وكرر عليه السؤال لست مرات، ولم يجب إلا عندما أمره اللورد سوذرلاند رئيس هيئة المحكمة بالإجابة. وقال جعايكه إنه عرف بذلك من شخص ما لكنه لا يستطيع الكشف عن هويته، وأضاف أن هذا الشخص يعيش في ليبيا وأنه لا يستطيع ذكر اسمه لاعتبارات أمنية"!!.([7])

([7]) جعايكه: القذافي متورط في مؤامرة ماسونية – تقرير – الموقع العربي لهيئة الإذاعة البريطانية – BBC Arabic News News – 27/ 9/ 2000 – الرابط:

http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/news/newsid_945000/945391.stm

ولنترك القذافي إلى مثال آخر. ......فقد كشف موقع ويكيليكس عن وثيقة نشرت في عديد من وسائل الإعلام بعناوين متقاربة تدور حول معنى واحد: "مبارك "علماني"". وهو حسب الوثيقة "علماني كلاسيكي يكره التطرف الديني والتدخل في السياسة، ويعتبر الإخوان المسلمين التحدي الأسوأ ليس فقط لسلطته ولكن لرؤيته للمصالح المصرية. وصدرت الوثيقة من السفارة الأمريكية بتاريخ 19 مايو 2009 وذلك قبل زيارة مبارك إلى الولايات المتحدة بعد تولي باراك أوباما الرئاسة، وتأتي أهمية الوثيقة لكونها محاولة من السفارة الأمريكية لتقديم مبارك لأوباما فأظهرت الوثيقة مزايا وعيوب مبارك، كما قدمت للرئيس الأمريكي المداخل التي يمكن أن يتعامل معها مع الرئيس المصري. ونقلت الوثيقة، التي حملت عنوان "زيارة مبارك لواشنطن" رؤية السفارة الأمريكية لأفكار الرئيس وسياسته ومن هذه الأفكار حرص مبارك على أن تظل مصر الحليف العربي لأمريكا، وأضافت "مبارك

ليس له أحد من المقربين أو مستشاريه يستطيع التحدث باسمه لأنه لا يسمح بذلك، كما أنه ترك وزير الداخلية حبيب العادلي والقيادات الأمنية رفيعة المستوى الفرصة للحفاظ، على ما وصفته الوثيقة، بالوحوش المحلية في مكانها"!!!!([8]).

وقراءة التوحش الأمني الذي تشهده مصر منذ عزل الرئيس محمد مرسي يمكن أن يكون أيسر في ضوء هذه الوثيقة!!

([8]) ويكيليكس: مبارك (علماني).. ويعتبر الإخوان المسلمين التحدي الأكبر للسلطة – تقرير – إعداد: أحمد الشمسي – موقع مصراوي الإخباري – **2010/11/12**. الرابط:

http://www.masrawy.com/news/egypt/politics/2010/december/11/wikileaks_mubarak.aspx

أما طاغية سوريا السفاح بشار الأسد فأراح واستراح عندما قال إن سوريا "آخر معاقل العلمانية"، وحسب حوار مع قناة روسيا اليوم فإنه قال: "أعتقد أن كلفة الغزو الأجنبي لسورية، لو حدث، ستكون أكبر من أن يستطيع العالم بأسره تحملها، لأنه إذا كانت هناك مشاكل في سورية، خصوصا وأننا المعقل الأخير للعلمانية والاستقرار والتعايش في المنطقة"!!!([9]). وأكد وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف المعنى نفسه، ففي مؤتمر صحفي مع نظيره الأميركي جون كيري إننا: "نريد أن تبقى سوريا دولة علمانية تتعايش

([9]) الأسد: أنا لست دمية.. أنا صناعة سورية وسأعيش وأموت في سورية – تقرير – جريدة الحقيقة الدولية الأردنية – 11/ 8/ 2012. الرابط:

http://www.factjo.com/pages/newsdetails.aspx?id=29155

فيها قوميات مختلفة"([10]).

ويلاحظ هنا:

أولاً: أن قضية العلمانية حاضرة في قلب النقاش الرسمي في أعلى مستويات المسئولية السياسية في العالم.

ثانياً: أن تصريحات لافروف في مؤتمر صحفي وليس في سياق نقاش ثقافي أو إبداء رأي شخصي.

ثالثاً: أن قضية الهوية في دول الربيع العربي – بالدليل القاطع – ليست قضية إرادة وطنية خالصة، وهذا التصريح لم يكد يلق اعتراضاً بوصفه تدخلاً في الشئون الداخلية لدولة ذات سيادة، وكأن التدخل منه مقبول ومرفوض، والمقبول هو ما جاء مؤيداً للخيار العلماني!

([10]) لافروف بعد لقائه كيري: اتفقنا على تجنب السيناريو العسكري في سوري – تقرير – موقع النشرة الإخباري اللبناني Elnashra – 14 سبتمبر 2013.

على الأقل في هذه الحالة.

....

وفي الحقيقة فإن من مفارقات التاريخ المثيرة أن تنتهي مسيرة فكرة أو حركة ما – بالضبط – في الاتجاه المعاكس لما أعلنته واستهدفته، وحركة التنوير ذات الجذور الفرنسية بدأت ثورة على الواحدية الكاثوليكية لإحلال التعددية محلها فإذا بها تنتهي إلى "واحدية نيو كاثوليكية" علمانية المحتوى، ليحل إكليروس علماني محل الإكليروس الكنسي........! ....وبسبب الجذور الفرنكفونية لآباء التنوير في الثقافة العربية المعاصرة فقد انتقلت هذه السمة البنيوية إلى حركة التنوير العربية، ومع انتقال التنويريين العرب من الهامش إلى المتن متحالفين (أو على الأقل بعضهم) مع النخب العسكرية التي قفزت على السلطة في النصف الثاني من القرن العشرين نقلوا إلى دولة التحرر الوطني عدوى البنية الإكليروسية، فهذه الدولة – وبخاصة في شمال أفريقيا – كشفت التجربة العملية أنها مجرد مصد في وجه الحركات الإسلامية، وهذا

الدور الذي لا يعدو أن يكون نوعاً من حراسة "الشجرة المحرمة" لمنع المجتمعات العربية من الأكل منها هو دور إكليروسي بالضبط كدور الإكليروس الكاثوليكي، والفرق الوحيد هو في محتواه. وقد دار حوار بيني وبين الكاتب التنويري الراحل خليل عبد الكريم تناول قضايا عدة لكنه عند الوصول لمحطة الديموقراطية قال عجباً، فالديموقراطية يجب أن تظل ممنوعة إلى أن تتم تربية الشعب تربية ديموقراطية، ما يعني أن التنوير في طبعته العربية يتأسس على مقولة أن الدولة يجب أن يكون لها "دور تربوي". وقد استنسخت الفئة الأكثر تطرفاً من الوطنيين المصريين "بنية" الهوية الأوروبية وجعلتها وعاءً لمحتوى مصري. و"بناء الهوية الأوروبيّة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، قد ساعد على تثبيت نوعٍ من "الفرادة" لم يسبق لأيّ حضارةٍ أخرى أن ادّعتها لنفسها. والأوروبيون لم يسعوا إلى "إعادة صياغة

العالم لأنّهم قادرون على ذلك (كما تدّعي التفسيرات المادّية)، بل لأنّهم يعتقدون أنّ من واجبهم القيام بذلك. فقد أملت عليهم هوّيتُهم أفعالهم هذه، ورأوا في الامبريالية نوعاً من السياسات المقبولة أخلاقياً".([11])

وهذه بذرة التي أثمرت في خطاب العلمانيين العرب وحلفائهم من العسكر فكرة "التبرير الأخلاقي للوصاية على الشعوب" و"الحق في القمع" بدعوى حماية "الدولة" أو "الأمن القومي" أو حمايتهما معاً!!.

....

([11]) ذاكرة الغرب المكبوتة وتاريخه المشوّه: من معركة "ترموبيل" إلى اعتداءات 11 أيلول/ سبتمبر – Le Monde Diplomatique - Editions Arabes – لوموند ديبلوماتيك بالعربية – يناير – 2009 – مقال – آلان غريش.

و"الدور التربوي" للدولة يقتضي الإيمان بوجود "حالة فطرية" للإنسان تعمل الدولة على حمايتها، وهذه مقولة دينية. ومن الأدبيات الغربية التي أرخت لهذه الظاهرة في السياسة الغربية كتاب صدر في فرنسا في العام 2005 يدرس المساهمون فيه مفهوم "الإنسان الجديد" الذي برز في القارة الأوروبية بعد الحرب العالمية الأولى وإثر تجربتين استبداديتين شهيرتين تمثلت إحداهما بالنازية في ظل هتلر والثانية بالفاشية مع موسوليني. وتتم الإشارة بداية إلى أن فكرة "صناعة الإنسان الجديد" قد ترافقت تاريخياً مع مشاريع أرادت خلق واقع جديد وباسم مبادئ مختلفة كلها جعلت الإنسان "هدفاً" لها، وتبدت في أوروبا بحركات مثل الإصلاح اللوثري، الذي نادى به مارتن لوثر، وبالثورة الفرنسية الكبرى عام 1789. لكن مفهوم "الإنسان الجديد" وجد صداه، وتم تبنيه أيضاً من قبل أنظمة استبدادية عرفتها أوروبا خلال سنوات العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي مثل الهتلرية والفاشية.

هذا "الإنسان الجديد" أرادوه دائماً "شاباً وسيماً وقوياً".. وأضاف له هتلر صفة أن يكون "آرياً" بناء على تفوق العرق الجرماني على غيره من أعراق البشر، لكن قبل هذه الصفات كلها كان هذا "الإنسان الجديد" جندياً في خدمة النظام الذي أراد إنتاجه. وهكذا لم يتردد النظام الفاشي الإيطالي مثلاً في تحديد هدفه في إجراء نوعٍ من الثورة باسم "النزعة الإيطالية التحديثية"، وهذا ما عبّر عنه موسوليني بـ "إعادة صياغة الشخصية الإيطالية"، وهذا ما يرى به الباحث الإيطالي ايميلو جانتيل نوعاً من "الدين السياسي يكون موسوليني فيه بمنزلة البابا". ذلك على اعتبار أن موسوليني نفسه يجسّد "الإيطالي الجديد".. ولكن هذا "الإنسان الجديد" لم يظهر أبداً بأنه "إنسان خارق" أو "سوبرمان" حسب التعريف الفلسفي لنيتشه، وإنما بالأحرى إنساناً "عادياً"، وإنما عرف واستطاع من خلال إرادته وحدها أن "يرتفع إلى مصاف الأبطال" كما يعبر

الباحث بيير ميلزا، المشرف على إنجاز هذا الكتاب. ويؤكد الباحث في دراسته للنموذج الهتلري لـ "الإنسان الجديد" بأن هذا النموذج قد أعطى الأولوية لـ "النقاء العرقي" وذلك عبر الخلط بين مفهومين هما: "العرق النقي" و"العرق الأسطوري" للوصول من خلال هذا إلى تأكيد "تفوُّق عِرق جرماني/ أوروبي شمالي يمثل الإنسان الجديد رمزه المطلق". لكن بالمقابل هناك مشاريع أوروبية أخرى برزت خلال الفترة المدروسة لـ "الإنسان الجديد" مثلها نظام فرانكو في إسبانيا وسالازار في البرتغال وحيث بدت أهم ملامح هذا "الإنسان الجديد" في كونه "ذا نزعة قومية وكاثوليكية ومتمسكاً بالتقاليد". وهكذا مثله إلى حد كبير الريفي الذي يحرث حقله ويذهب القداس في أيام الآحاد ويسهر على زوجته وأطفاله (العديدين إذا أمكن).([12])

([12]) الإنسان الجديد في أوروبا الفاشية – بيير ميلزا وآخرون – جريدة البيان الإماراتية – 26 ديسمبر – 2005:

....

ومن الناحية السياسية فإن الحديث عن دور تربوي للدولة كلام شمولي لا صلة له لا بالتعددية ولا الليبرالية، لكنه مما يردده معظم التنويريين، وبخاصة في الحوارات الداخلية بينهم، ومن الخطير جداً أن تتسع دائرة حصر الحقيقة في حوارات "الداخل"، مع رفع شعارات مغايرة في الخطاب الموجه لـ "الخارج".

L'homme nouveau dans

L'europe 1922 - 1945

.Pierre milza ET

Fayard - Paris 2005

p. 365

وقد اعترف فاروق حسني بأنّ الرئيس السابق حسني مبارك رفض قبول استقالته ثلاث مرات وكان يقول له: "أنت تعمل معي لا مع الحكومة"([13])، ما يعني أن الرئيس المعزول كان على قناعة بأن الثقافة شأن "سيادي". وفي اعتراف واضح بأن الرئيس والوزير كانا ينطلقان من القناعة بفكرة "الدور التربوي للدولة" يقول فاروق حسني: "وزارة الثقافة هي "تربوية" في الأساس، ما دامت مسؤولة عن ثقافة الناس".([14])

....

([13]) فاروق حسني: في زمن مبارك كنا نبني الدولة على حساب الإنسان – جريدة الحياة اللندنية – القاهرة – إيمان علي – السبت ٢ فبراير ٢٠١٣.

([14]) فاروق حسني: في زمن مبارك كنا نبني الدولة على حساب الإنسان – جريدة الحياة اللندنية – القاهرة – إيمان علي – ٢ فبراير ٢٠١٣.

في حوار دار بيني وبين المفكر المصري المعروف المستشار طارق البشري نشر في كتاب لي عن المشروع الفكري للبشري عن: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي ببيروت، رويت للبشري قصة الحوار المشار إليه سلفاً مع الراحل خليل عبد الكريم فقال لي إنه خلال العام 1987 كان حزب التجمع المصري يصدر "نشرة داخلية" تطبع على "الاستنسل" وتوزع توزيعاً محدوداً لمناقشة القضايا الداخلية أصدر منها عدة أعداد حول: الموقف من الإسلاميين والاتجاه الذي تغلب في النهاية هو الاتجاه الذي رفع شعار "الدفاع أولاً عن عقل مصر"، وأن الدفاع عن عقل مصر يستوجب الوقوف ضد الإسلاميين كموقف مبدئي يسبق أي موقف سياسي.

وهـــذا موقـــف ســـلفي/ جهـــادي بامتيـــاز، و"العلمـــانيون الجهـــاديون" مســـتعدون لمحاربـــة الديموقراطيــة، وأحــدهم سـئل قبــل ثــورة الخــامس والعشرين من يناير عن الديموقراطية إذا جاءت بجماعة الإخــوان المســلمين فقــال بمنتهــى الحرقــة بالعاميــة المصـــرية: "تولـــع الديموقراطيـــة"، أي "لتحتـــرق الديموقراطيـة"، فهـل كـان أحـد يتخيـل مجـرد تخيـل أن تـــؤول دعـــوة التنـــوير إلـــى الاســـتعداد لإحـــراق الديموقراطية..........إنه دهاء التاريخ!!!.

....

وقـد كـان لهـذا التمهيـد فضـل تنشـيط ذاكرتـي، ورغـم أن الكتـاب كمـا اختـرت لـه فـي البدايـة، كتـاب مختارات مترجمة، إلا أن الضرورة لها أحكام!

وأول ما تذكرته مقال كتبته في العام 2006 في "البيان الإماراتية" حول الإصلاح في العالم العربي، وكانت هذه الفترة فترة حديث متواصل – بعد إطاحة نظام صدام حسين – كنت بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير أتصور أن "الربيع العربي" أرسى قواعد مختلفة للتحالف والاصطفاف، لكن ما حدث في مصر بدءاً من الثالث من يوليو 2013 أعاد الأمور إلى ما كانت عليه وقت كتابة المقال. المقال عنوانه: "تحالف العسكر والتنويريين ضد الإصلاح" (البيان: 17 مارس 2006)، وفيه: "عند التساؤل عمن يشكل التحالف الداعم للإصلاح في العالم العربي فستكون الإجابة يسيرة إلى حد كبير، فما أتت به صناديق الانتخابات في الجزائر مطلع التسعينات ثم في عدد من التجارب الأصغر في القرن الجديد سواء في الخليج أو المغرب ثم في النهاية ما أسفرت عنه الانتخابات الفلسطينية الأخيرة

يشير إلى أن النواة الصلبة لدعاة الإصلاح في العالم العربي هم شرائح واسعة من التيار الإسلامي الداعيه للاحتكام لصندوق الانتخاب ومنظمات المجتمع المدني ذات التوجه الليبرالي، بينما في المقابل يواجه هذا التحالف تحالف آخر يبدو عجيباً، يضم العسكر وشرائح واسعة من التنويريين العرب ممن يعارضون الإصلاح الديموقراطي". "وهذا التحالف الذي يبدو عجيباً يتخذ موقفاً مبدئياً معادياً للإصلاح، إما بوصفه شكلاً من أشكال التغريب المُفضي لاستلاب الهوية، وهم حقيقة في الأمر يدافعون عن الدولة المركزية "المستبدة" التي هي بضاعة أوروبية يعبر الانحياز لها عن تخلٍ تامٍ عن الهوية والتحاق إرادي بالغرب، وإما باعتبار أن الإصلاح – أي إصلاح – هو جزء من أجندة أميركية صهيونية، وهو تفتيش في النوايا ومواجهة للحجج المنطقية والحقوق الثابتة بلغة سجالية اتهامية".

"وهذا التحالف في الحقيقة ليس عجيباً لأن العقل التنويري العربي نتاج أوروبي خالص مسكون بهواجس اللحظة الاستثنائية والدور الطليعي للنخبة، وغيرها من القناعات المعادية للحرية التي سوغت تحالف الطرفين لعقود متوالية واجتماعهما على نموذج "التحديث الاستبدادي" الذي انتهى في الاتحاد السوفييتي نهاية مأساوية، وما زال البعض يتباكى عليه، ويبحث خلف نهايته عن طواحين الهواء التآمرية عاجزا عن استيعاب المشكلة الحقيقية، فضلاً عن الاعتراف بها". "وقد كانت تجربة البعث العراقي نموذجاً مهماً لهذا النهج في النظر والفعل والتنظيم السياسي، فكان دور المفكرين التنويريين الذين طرحوا أفكاراً استبدادية مثل "القائد الضرورة" و"اللحظة الاستثنائية" و.... لا يقل أهمية ولا تأثيراً عن دور العسكر الانقلابيين".

"وعند طرح دعوة الإصلاح التي هي في الحقيقة – ومنذ سنوات – مطلب النخب الوطنية غير المتحالفة مع الاستبداد فإن خلفيات معرفية وثقافية لعبت أدوراً رئيسة في بناء التحالفات المؤيدة والمعارضة للإصلاح، فهناك سيطرة كاسحة في المؤسسات الإعلامية والثقافية للفكر الوضعي الأوروبي بأطيافه المتعددة، وهو يخبئ خلف الشعارات المرفوعة كواجهة للرفض المتشنج لمشروع الإصلاح الأميركي موقفا أعمق مداره رفض "نموذج الحياة الأميركي"".

"والرفض الذي يدغدغ مشاعر العامة بالتنفير من حضارة الاستهلاك والإباحية والهامبورجر هو في الحقيقة رفض لأهم ما يميز نمط الحياة الأميركي من حضور واضح للدين ومعاداة صارخة للإلحاد والفكر القومي على السواء".

"فمنذ بدأ الأوروبيون عملية تفكيك الدولة العثمانية – وهو مخطط تم قبل ظهور أميركا كقوة عالمية – والأوروبيون يعتبرون "التخلص" من الدور السياسي للإسلام إنجازاً تاريخياً لا يجوز التفريط فيه، والخطاب الإعلامي المسوغ لرفض مشروع الإصلاح الأميركي يكتفي بإثارة مشاعر الجماهير إما بـ "الصورة النمطية" التي سبقت الإشارة لها، أو بالإحالة على العلاقات الاستراتيجية الأميركية الإسرائيلية دون النفاذ للأصول المعرفية والثقافية للمشروعين الأوروبي والأميركي". "وإجمالاً، يعتبر الأميركيون وحلفاؤهم الإنجلوسكسون أن التطرف القومي والماركسي ذا التوجه الثوري سبب رئيس في ظهور الإرهاب وهو مذهب في التفكير والفعل أنتجته الثورة الفرنسية، بل إن دراسات عديدة ليس أولها كتاب "إبادة جماعية فرنسية" (1989)

للفرنسي رينالد سيشر وليس آخرها "الإرهاب: حرب أهلية في الثورة الفرنسية" (2005) للبريطاني دافيد أندرس تحمل الثورة الفرنسية المسؤولية عن ظهور أيديولوجيا إبادة المعارضين السياسيين".

"حيث شهدت فرنسا أول هولوكوست في العصر الحديث عندما أباد جيش الثورة الفرنسية نحو ربع مليون من سكان فنديه (فاندي) بينهم 30 ألفاً أدينوا أمام "قضاء استثنائي". وفي هذه الحقبة المظلمة صيغت مفاهيم ما زالت تحكم العالم العربي مثل: "لا صوت يعلو فوق صوت المعركة"، و"أعداء الشعب". بل يرى أنصار هذا الاتجاه وهم كثيرون في التشكيل الحضاري الإنجلوسكسوني أن هذه هي البذرة التي أثمرت ستالين وهتلر وبول بوت، وغيرهم ممن أبادوا معارضيهم السياسيين".

"والصراع الأميركي الفرنسي على العالم العربي هو صراع مفاهيم بقدر ما هو صراع مصالح، وما يكشف عنه المؤرخ الفرنسي المعروف هنري لورنس في كتابه الذي يلخصه عنوانه على نحو ممتاز: "فرنسا وتكوين العالم العربي الحديث"، أن فرنسا صاغت هذا الحوض الجغرافي على نحو يخدم مصالحها ويعكس قناعاتها".

"أولاً، بمساعدة محمد علي في الوصول للحكم ثم احتضانه وتحويل مصر برضاه إلى ذراع للمصالح الفرنسية، ثم استنساخ دولة محمد علي في العراق وسوريا وغيرهما من الجمهوريات التي شهدت تجارب قومية ذات خطاب ثوري، وهو من أسباب غضب فرنسا الشديد لزوال النظام البعثي العراقي ذي الجذور الفرنكفونية".

"وعندما تسعى أميركا للتخلص من "دولة محمد علي" وتكون البداية في العراق هذا الصعود الكبير لدور الحوزة الشيعية والتنظيمات الإسلامية فمن الطبيعي أن تنزعج فرنسا وتعارض بكل قوة مشروع الإصلاح الأميركي". ولكن هل يبرر هذا انزعاج التنويريين والعسكر؟"([15])

وإذا عدنا إلى قضية الصراع بين المعايير الأمريكية والفرنسية على العقل السياسي العربي – وطبعاً العقل السياسي المصري – وهو صراع ازداد وضوحاً بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير، فيمكننا القول بأن العقل المصري هو في حالة صراع على قوائم "التكريم" و"التجريم"، والثورة الفرنسية في قلب صراع التكريم والتجريم، فبعض ما تعتبره النخبة المدنية يستحق التكريم: (تأليه الدولة – تقديس الجيش – الإصلاح

([15]) تحالف العسكر والتنويريين ضد الإصلاح – مقال – ممدوح الشيخ – جريدة البيان الإماراتية – 17 مارس 2006.

بالإبادة – الإقصاء) هو مما ترى النخبة الإسلامية أنه يستحق التجريم. وفي حكم يلخص هذا التعارض يقول المرجع الإسلامي اللبناني الراحل محمد حسين فضل الله إن "الثورة الفرنسية لو خضعت للمعايير الأمريكية الحالية فى مسألة الإرهاب لصنفت بأنها "إرهابية"".[16]

وهذا الحكم مهم من زاويتين:

الأولى: أنه يكشف أن كل تأصيل معرفي للقضايا الكبرى في عملية إعادة بناء النظم السياسية بعد الربيع العربي – بعيداً عن الشعارات السياسية – يقرب العقل السياسي العربي من "المعايير الأمريكية" دون أي سعي إلى هذا التقارب أو رغبة فيه، وهذه المعايير الأمريكية تتأسس على ثقافة تكن عداءً تاريخياً للثورة الفرنسية.

---

(16) فضل الله: الثورة الفرنسية "إرهابية" بالمعايير الأمريكية – جريدة اليوم السابع المصرية – 26 مايو 2009.

وغني عن البيان أن قبول بعض هذه المعايير لا يعني التبعية لها ولا التحول إلى خادم لأجندتها السياسية، لكن قوة مختبئة تحت جلد الدولة المصرية لا ترى مصر إلا عدواً لأمريكا، وهي لهذا السبب مستعدة لأن تمحو ثورة الخامس والعشرين من يناير – أو قل مستعدة لأن تذيبها في حمض الكبريتيك المركز – لتستعيد الدولة الشمولية القامعة التي تقتات من معاداة أمريكا وتتحالف مع أقلية فرنكفونية مستعدة لتبرير كل الخطايا لتمنع الإسلاميين من حق الوجود الشرعي، ولتحافظ على الأساس التاريخي للدولة القائمة في مصر منذ 1805، على قاعدة يجب فرضها، ولو بقوة السلاح، وهي أن "الثورة الفرنسية المصدر الوحيد للتشريع"!!!!

الثانية: أن كل تقييم أخلاقي للممارسات هو تقويض للنفوذ الشمولي للدولة المركزية المستنسخة من أوروبا، وبخاصة في المساحات التي هي موكولة أولاً وأخيراً للفرد أو الأسرة أو النخبة. وهذه الدولة المركزية "الوطنية" نمط في التنظيم السياسي أول مهامه "قتل الحس الأخلاقي" عند المحكومين حتى لا يفكر واحد منهم، ولو لحظة واحدة، قبل أن يطيع أمر الدولة – أي أمر – حتى لو كان أمراً بارتكاب جريمة إطلاق النار بغرض القتل على متظاهرين أو معتصمين سلميين.

والفرق بين الموقفين هو بالضبط الفرق بين من أرادوا الاحتفال بالحملة الفرنسية على مصر بوصفها "فجر التاريخ المصري الحديث"، وبين من استقال من منصب نائب رئيس الجمهورية احتجاجاً على سفك الدماء، فالقمع – بالمعيار الأخلاقي – الذي يخشاه كثير من العلمانيين المصريين لا فرق فيه بين "قمع استعماري" و"قمع وطني".

....

ومما ذكرني به هذا الكتاب أيضاً ما قلته في لقاء تلفزيوني هذه قصته.

كنت بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير ضيفاً على التلفزيون المصري مع القس عبد المسيح بسيط أبو الخير في لقاء حول حادثة من حوادث الاعتداء على الأقباط، وتذكرت وأنا في الاستديو خاطراً غريباً خطر لي وأنا بعد في مطلع الشباب وقلته على الهواء. كنت شاباً قليل المعرفة كثير الحماس للفكرة الإسلامية. ورغم أنني لم أنضم يوماً إلى أي جماعة إسلامية واخترت مسار التثقيف الحر والانحياز إلى الحقيقة، إلا أنني فكرت في أن الحل لكي تولد الدولة الإسلامية: "إبادة الأقباط"!

وبطريقة "الفلاش باك" تأملت الفكرة وسياقها، وكيف أنها مرفوضة إنسانياً وأخلاقياً وشرعياً، والفكرة في الحقيقة ليس نتاج "تصور أيديولوجي" متكامل يقوم على إبادة "الآخر" بل نتاج ثقافة مادية مفرطة في المادية صبغت كل شيء حولنا، وهي ثقافة "نتشربها" ببطء من المحيط الاجتماعي دون أن نشعر. وهذه الثقافة هي – دون مواربة – صيغة مخففة من الفكرة البائسة التي تبناها الزعيم النازي إدولف هتلر وأباد بسببها الملايين: "النقاء"، وهي عند هتلر "نقاء عرقي"، وعند آخرين "نقاء ديني"، وعند فريق ثالث "نقاء مذهبي"، ....وهكذا.

ومن يتأمل حياتنا اليومية يكتشف أن المجتمع المصري يشهد بشكل دائم درجات متفاوتة من الضيق بالتعددية تبدو واضحة في الممارسة السياسية، لكنها أقل وضوحاً – لكن أكثر خطراً بكثير في الممارسة الاجتماعية – ويمكن أن نعتبرها نوعاً من التحامل على "الآخر"، وينطبق

هذا على ذوي البشرة السوداء بدرجاتها، بل أحياناً يمتد ليشمل البدناء! وقد لفت نظري أن أكثر من فتاة وسيدة سبق لهم العيش في الخارج أن بدانتهن كانت موضوع تعليقات مسيئة في مصر أكثر مما كانت مثار تعليقات في أمريكا مثلاً. وأذكر أن الصديق العزيز بلال فضل كتب قبل سنوات مقالاً في جريدة "المصري اليوم"([17]) عن الممارسات العنصرية في المجتمع المصري وفوجيء بكم لم يتوقعه من القصص المؤسفة تصله من قراء عانوا تمييزاً عنصرياً. ولا أحسب أن التضاد بين هذه الثقافة وبين الإسلام يحتاج إلى دفاع مسترسل، ويكفي أن نشير إلى سيرة الصحابي الجليل بلال بن رباح رضي الله عنه، وإلى الغضب الشديد الذي بدر من الرسول صلى الله عليه وسلم عندما عيَّر الصحابي الجليل أبو ذر الفغاري صحابياً آخر بسواد بشرة أمه،

([17]) اصطباحة – بلال فضل – مقال – جريدة المصري اليوم – ٢٩ /٨ /٢٠٠٩.

وصيحته الخالدة: "إنك امرؤ فيك جاهلية"!

ولأن الظاهرة في تجلياتها في الواقع المصري (أو قل العربي) بنت الثقافة، فمن الطبيعي أن توجد شواهد متفرقة على وجودها عند البعض في تراثنا، لكن "انتقاء" هذا الشاذ النادر في تراثنا وتحويله إلى نظرية لم يحدث إلا مع اجتياح فكر التنوير الغربي نخبتنا المثقفة، وبخاصة من يطلق عليهم مفكرو النهضة الذين استبطنوا مركزية فكرة "التقدم" فلم يستبعدوا أن تكون الإبادة هي الحل!

ولأن الظاهرة مراوغة فإنها تعيش "تحت جلد" التيارات الفكرية المصرية كلها تقريباً، وتكشف عن اكتساح حققته "الرؤية المادية" في واقعنا دون أن يكون الإسلاميون استثناءً من ذلك. وتكاد ثقافتنا المعاصرة تكون الثقافة الوحيدة التي تشكل "الفاشية الإقصائية" فيها أقرب ما تكون إلى "قطاع عرضي" في بنية كل تيارات النخبة، وإن بقي جذرها – تاريخياً ومعرفياً معاً –

راجعاً إلى الفكر الإرهابي للثورة الفرنسية.

....

كلمات قليلة في خطاب للرئيس المصري الدكتور محمد مرسي عن التضحية بالبعض حتى تعبر السفينة، دفعتني للعودة إلى كتاب مرجعي أقدره كثيراً هو: "أسس التقدم عند مفكري الإسلام" للدكتور فهمي جدعان[18] لاختبار ذاكرتي! فهذه الكلمات صدى لفكرة متبلورة – وإن لم تكن السائدة – في الفكر الإسلامي الحديث تضفي مشروعية على "إبادة" البعض لتحقيق النهضة. والفكرة كما يروي الدكتور جدعان وقع فصل من فصول السجال حولها عندما حدث ما يسمى "الانقلاب الدستوري" (1908) في الفصل الأخير من فصول تاريخ الدولة العثمانية. وقد تلى الانقلاب عملية واسعة للتخلص من الخصوم السياسيين بالوسائل الاستثنائية بعيداً من القانون الطبيعي. واستدعاء "الإجراءات

---

[18] أسس التقدم عند مفكري الإسلام – الدكتور فهمي جدعان – الطبعة الثالثة 1988 – الأردن – ص 305 وما بعدها.

الاستثنائية" كحل للأزمة السياسية في مصر تكرر غير مرة في الخطاب الرسمي، ويتكرر بلا حصر في دعوات للضرب بحسم والتعامل بصرامة مع المعارضين. وبحسب جدعان، أثارت هذه الإجراءات نقاشاً واسعاً وبعض الكتّاب المسلمين أيدوا "شنق" بعض علماء الدين، وكتب مصطفى الغلاييني – العربي الاتحادي – في حزيران (يونيو) **1909 مؤكداً أن اللجوء إلى المحاكم يضيع وقتاً كبيراً، فلا تتمكن الدولة من قطع دابر الشر، وهو يرى هذه العدالة المباشرة البعيدة من يد القضاء نوعاً من "المصلحة المرسلة".**

ولعل هذا يشير إلى تجذُّر فكرة "العدالة الناجزة" التي شهدت مصر أخيراً بعضاً من فصولها الدموية قام فيها مواطنون بإعدام أشخاص وسحلهم، وأحياناً تعليق جثثهم علناً في شكل لا يقره شرع، والأخطر أنهم أطلقوا على ذلك تطبيقاً لـ "حد الحرابة".

وقد وُصِف ضحايا الإجراءات الاستثنائية بأبشع الأوصاف، فضلاً عن وصف من دافعوا عن ضرورة كفالة المحاكمة العادلة لهم، فكتب أحد مؤيدي هذه الإجراءات أنه لا يتألم من "إبادة هذه الجراثيم والحشرات"، إلا أحد رجلين: "رجل رجعي باع وجدانه في سبيل غايته الفاسدة"، أو "رجل جاهل" يعذر لعدم تبينه الفائدة من إبادة "هؤلاء الطغام". والخطير – بل الخطير جداً – في دفاع هؤلاء عن هذه المسالك الدموية ما ينقله جدعان في كتابه قائلاً: "ومن ناحية ثانية ليس ثمة شك في موافقة هذه الأحكام للشريعة المطهرة التي ما أنزلت على الرسول إلا لتطهير الأرض من الفساد وإصلاح النفوس التي تلوثت... وكيف تمنع شريعة هذا شأنها من حكم عادل يطهر الأرض ويقمع الفساد ويمحق أهل الظلم". وتأتي الصدمة الأكبر في ما ينقله جدعان من تبريرات فقهية، وهو قول الغلاييني: "لقد جوز فقهاء المالكية إبادة

الثلثين لإصلاح الثلث". وفي تشابه لافت مع دعوات البعض لتطبيق "حد الحرابة" على معارضي السلطة الحالية في مصر يقول الغلاييني لقد قال الله في حق هؤلاء: "إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ..."، إلى آخر الآية.

لكن الغلاييني لا يطيق صبراً على البحث عن مرجعية فقهية لما يؤيده فيقول: "ولو لم يكن هناك دليل شرعي على جواز هذا الحكم فإن العلماء ذكروا أن للحاكم أن يعمل لما فيه المصلحة للأمة والمصلحة اليوم باستئصال هؤلاء الفسادين وقطع دابر المتقهقرين".([19])

فهل الشريعة فعلاً تجيز هذا؟

....

([19]) بؤس "الإصلاح بالإبادة" – مقال – ممدوح الشيخ – جريدة الحياة اللندنية – 13 إبريل – 2013.

ورغم أن التشابه بين تاريخ الثورة الفرنسية وأي ثورة تالية لها في العالم يمكن أن يبدو مبرراً في نظر كثيرين فإن التشابه هنا هو بين بنيتين عقليتن لا بين ثورتين، وربما كان من المهم الآن قراءة تاريخ الفكر العربي الحديث والمعاصر، في ضوء حقيقة أن عقل النخبة السياسية المصرية الحديثة هو خليط من مكونات أوروبية وأنه "فرانكفوني" بامتياز. ومن التحليلات الإعلامية الغربية التي تناولت المشهد السياسي في مصر بعد الثالث من يوليو كإعادة إنتاج لحقبة الإرهاب من تاريخ الثورة الفرنسية تحليل نشرته "التايمز" عنوانه: "الربيع العربي لم يكن أكثر من ثورة غضب"، وقد استعانت الصحيفة بجزءٍ من الحديث الذي دار بين الرئيس الأمريكي "ريتشارد نيكسون" و"زو ايناي"، رئيس الوزراء الصيني عام **1972**، وتناولا خلاله مناقشة الأثر الأكبر للثورة الفرنسية على أوروبا، فرد "ايناي" قائلاً: "لا زال الوقت مبكرًا على

ذلك"، ورأت الجريدة كذلك أن الوضع كذلك فيما يخص الربيع العربي ما يزال الوقت مبكرًا لمعرفة أثاره.

وقالت الصحيفة: "إنه بعد الإطاحة بالرئيس المنتخب"محمد مرسي" تزايدت مشاعر الغضب عند المصريين، وذلك بعد أن انقلب الليبراليون على الإسلاميين بعد اكتساحهم الانتخابات البرلمانية"، مضيفة أن جموع المصريين رفضوا فكرة اعتقال رئيس مصري منتخب بإرادة الشعب لإرضاء الليبراليين وخدمة مصالحهم، مما نتج عنه حالة من الانقسام بين مؤيد ومعارض، الأمر الذي أدى لزيادة حالة الاحتقان بالشارع المصري. وتابع الكاتب قائلاً: اختلاف آراء المصريين نتج عنه صدام اجتماعي تحوَّل إلى صدام في الشوارع وهذا المشهد يذكرنا بما سمي بفترة "الإرهاب" في الثورة الفرنسية التي أتت بنابليون بونابرت.([20])

([20]) تايمز: مصر تعيش فترة إرهاب الثورة الفرنسية – جريدة الوفد – أماني زهران – 17 يوليو 2013.

وفي إشارة لها دلالتها على أن ظاهرة استباحة إبادة المخالفين ذات جذور فرنسية، ولها دلالتها أيضاً على أن "دعاة الحد الأقصى" من الجانبين وجهان لعملة وبخاصة لقلة غلبة الغضب على المنطق. تحدث محمد عباس، أحد قيادات أنصار حازم صلاح أبو إسماعيل، "مؤسس حزب الراية"، عن الثورة الفرنسية في مقالة له، مشيراً إلى أنها لم تنجح إلا بعد القضاء على الإعلاميين والقضاة الفاسدين، على حد وصفه، في إسقاط واضح على الأحداث فى مصر وموقفه من القضاة والإعلام. وهو قال في مقال على صفحته الشخصية بـ "فيس بوك": "بعد الثورة الفرنسية انسحب الأطهار وتقدَّم الفُجّار، وانقلب الثوار على بعضهم البعض، ثم انقلب القضاة، وأصبحوا يصدرون أحكاماً بالسجن بل وبالإعدام كل يوم". وتابع: "لم يعد ثمة قضاة شرفاء وآخرون غير شرفاء بل أصبح هناك قضاة تتاح لهم الفرصة لبيع

ضمائرهم وآخرون لا يجدون من يشتريها وكانت الأحكام تباع بالملايين وتصدر دون منطق ولا قانون، وعندما آلت الأمور لروبسبير قبل قتله هو الآخر اجتمع بشيوخ الإعلاميين والقضاة وطالبهم بتطهير القضاء والإعلام فاختلفوا وجاء من بعده فأمر بإبعاد 1000 قاضٍ و1000 إعلامى فرفضوا وحرضوا الغوغاء والسوقة ليمارسوا الحرق والسلب والنهب، وكان إعلاميون لا يكفون عن الكذب لتغطية الجرائم، وتداعت الأمور وتدافعت حتى أدرك الناس أن الفساد لم يكن من الملك والملكة والحاشية فقط فبدلوا شعارهم من: اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس.. إلى اشنقوا آخر قاضٍ بأمعاء آخر إعلامي". ([21])

([21]) مؤسس حزب "أبو إسماعيل" يستلهم أحداث الثورة الفرنسية: اشنقوا آخر قاضٍ بأمعاء آخر إعلامى – صلاح الدين حسن – جريدة الوطن المصرية – 5/ 5/ 2013. ويمكن الرجوع إلى الرابط:

وفي تأكيد آخر لهذه الحقيقة المؤسفة – أن الفكر المادي لم يستثن جماعات وحركات إسلاميي السلطة – كشف الدكتور ياسر برهامي نائب رئيس الدعوة السلفية بالإسكندرية عن أن أحد المشايخ التابعين لحازم صلاح أبو إسماعيل قال له: "وإيه يعني أن يقتل 10 مليون في سبيل إقامة الدولة الإسلامية؟"!([22])

وهكذا، ففي الوقت نفسه – وبينما دماء الإخوان وحلفائهم تسفك بدعوى الدفاع عن "الدولة" و"الأمن القومي" معاً – اقتسم دعاة الحد الأقصى من الطرفين وجهي العملة الفرنسية على نحو مدهش:

---

http://www.elwatannews.com/news/details/175921

([22]) **ياسر برهامي: أحد المشايخ قال لي: "إيه يعني لما يتقتل 10 ملايين في سبيل الدولة الإسلامية؟" – تقرير: سعيد حجازي وحسين العمدة – جريدة الوطن المصرية – 14/ 9/ 2013 – ص 6.**

- دعاة الحد الأقصى من الإسلاميين – ويمثلهم خطاب الدكتور محمد عباس– اختاروا "بشكل انتقائي"، وهُم في السلطة، أن يعيدوا إنتاج خطاب السلطة الثورية الفرنسية في مواجهة بقايا النظام الملكي.
- واختار خصومهم – وهم في السلطة – تبني خطاب الطرف نفسه في مواجهة العدو نفسه، ليبرروا الحرب المفتوحة مع الإخوان وحلفائهم!!!!

وتحفل الأدبيات الفرنسية المعاصرة – بعد أن مر كل هذا الزمن على ممارسات "حقبة الإرهاب" – بكتابات تحليلية تشبه خطاب خصوم الإخوان بعد عزل الدكتور محمد مرسي من منصبه. وفي مقابل الإدانة الأخلاقية الواضحة في الكثير جداً من الأدبيات "المراجعة" في الثقافتين الفرنكفونية والإنجلوسكسونية ما يزال هناك من يروي القصة (قصة الثورة الفرنسية وخصومها) بمنطق يدين الضحية ويبرر سفك الدماء. فمثلاً الكاتبة الفرنسية إفلين بيابيه تكتب تحت عنوان: "عندما تنفخ روح "الفانديه": مخاطر الذاتيّة المؤطّرة حول الهويّة"، لتروي القصة بقاموس مفردات "جبهة الإنقاذ" المصرية وحركة "تمرد" المصرية وحلفائهما قائلة: "في مارس 1793، وبعد عامين من التحركات المتواترة، قامت انتفاضة واسعة لأهل الريف في غرب فرنسا. ولن تحطّ الحرب الأهلية رحالها إلاّ في العام 1801 مع نظم "القناصل"، وسيكون لها

الأثر العميق في الخيال الجماعي، حيث ستصبح إحدى أهم رموز الثورة المضادة المتجسدة في صورٍ نمطيّة جامدة: تستنكر ضلال الفلاحين الجهلة المتعصّبين الذين يحرّكهم أسيادهم السابقون" أو على العكس تتغنّى بملحمة فلاحين مخلصين لمجتمعٍ بطريركيٍّ هانئ.([23]) وتتناول الكاتبة الفرنسية نموذجاً للكتابات التي تحاول فهم ثورة فاندي (فندييه) ومجازرها قائلة إنها كتابات تحاول بحث: "خلفيّة "الظروف" التي أحاطت بهذه الانتفاضة، وليس "الأسباب" المعروفة جيّداً: إنّها في المختصر مجموعة معقّدة، تبدأ برفض التجنيد الإلزامي الذي كان قد أصبح ضروريّاً للدفاع عن الحدود المهدّدة، وصولاً إلى التشريع المدني للكهنة. أمّا الظروف

([23]) عندما تنفخ روح "الفانديه": مخاطر الذاتيّة المؤطّرة حول الهويّة – مقال – إفلين بياييه – - Le Monde Diplomatique Editions Arabes – لوموند ديبلوماتيك العربية – عدد مارس 2009.

فتعود إلى "الانطواء الذاتي النسبي ثقافياً واقتصادياً" لدى سكان ريفيين فقراء. وترتكز هذه "الثقافة" الخصوصيّة على ....الإيمان بـ .....ثقافة تحدّد الهوية والسياسة معاً. وقد استغلّ النبلاء تمرّد الهوية هذا، لمحاربة "التجاوزات المفترضة على السيادة الوطنية"".([24])

وعندما تجد خطاباً يستخدم منطق إفلين بيابيه الذي تتحطم فيه الحقيقة تحت نعل "السياق"، فاحذر لأنك أمام "شاهد زور"، وما أكثرهم في مصر ما بعد 30 يونيو 2013.

([24]) **عندما تنفخ روح "الفانديه": مخاطر الذاتيّة المؤطّرة حول الهويّة – مقال – إفلين بيابيه –** - Le Monde Diplomatique Editions Arabes **– لوموند ديبلوماتيك العربية – عدد مارس 2009.**

وهكذا تنتقد الكاتبة الفرنسية نظراءها الفرنسيين الذين يصورونها "أوّل انتفاضة شعبية يساريّة كبرى"، وهي تشير بوضوح إلى تناقض رئيس بين "كونية قيَم الجمهورية البورجوازية في مواجهة كونية القيَم الكاثوليكية، وما ينتج عن ذلك من "سحقٍ لتمرّد أهل القلّة"". [25]

وفي الفقرة السابقة فكرتان يجب الوقوف أمامهما بتمعن والنظر إليهما في مرآة الحالة المصرية:

الأولى: أن الخارج عن قناعات "الثورة الفرنسية" (بعد أن أصبت سلطة) هو متمرد، وهو وأتباعه "قلة يجوز سحقها".

---

[25] عندما تنفخ روح "الفانديه": مخاطر الذاتيّة المؤطّرة حول الهويّة – مقال – إفلين بيابيه – - Le Monde Diplomatique Editions Arabes **– لوموند ديبلوماتيك العربية – عدد مارس 2009.**

الثانية: أن هذه المواجهة بين رؤيتين كونيتين هي صياغة مختلفة للصراع بين "القيم الكونية للدين" و"القيم الكونية للدولة" وهي في قلب الصراع الذي انطلق في مصر بمجرد عزل الرئيس مرسي بين الإخوان وخصومهم.

حيث يدفع الإخوان ثمن خلافات كثيرة قد يكون أهمها رفضهم "تمصير الجماعة" ومن ثم "تمصير الإسلام"، وهو موضوع شديد الأهمية والتركيب لا تحسمه السجالات، وبخاصة إذا كان الطرف الآخر في السجال مثقفون علمانيون "يؤلهون الدولة"!!.

وبالعودة إلى الكاتبة الفرنسية إفلين بيابيه – ومقالها نموذج معبر عن مدرسة لها أتباع كثيرون في النخبة المصرية – نجد أنها "تتفهم" موقف المتعاطفين مع ضحايا "فاندي" استنكارهم الكبيرٍ للعنف الذي اتّسمت به عمليات القمع. لكنّها ترفض بوضوحٍ أن يكون دافع احتجاجات أهل فاندي: "الهوية".([26]) وبالطريقة الملتوية نفسها التي يتعامل بها "العقل التبريري السلطوي" في مصر مع الوقائع، تقوم الكاتبة الفرنسية بعملية تفكيك وإعادة تركيب لثورة أهل فاندي (فندييه) وصولاً إلى تجريمها!وإفلين بيابيه تتساءل أولاً عن معنى الهوية ثم تتساءل: "هل يمكن طرح هذه الأسئلة خارج أيّة معطيات اقتصادية واجتماعية؟ أليس في ذلك خطر الانزلاق إلى مفهومٍ "جوهريّ"

([26]) **عندما تنفخ روح "الفانديه": مخاطر الذاتيّة المؤطّرة حول الهويّة – مقال – إفلين بيابيه –** - Le Monde Diplomatique Editions Arabes **– لوموند ديبلوماتيك العربية – عدد مارس 2009**.

للهوية لا يعبّر عن كون فلاحي الغرب الفرنسي لم يكونوا كلّهم ثوار .... وأن هؤلاء لم يكونوا جميعهم فلاحين؟ والتساؤل يُطرح بشكلٍ أوسع على التوتّر بين جماعة مسلّحة بقوّة هويتها ومعرّف عنها بأنّها "شعبٌ" ملموس، و"الشعب المجرّد" المتمثّل في الجمهورية. نقاشٌ واسعٌ وعصبيّ: فما هي الحقوق المتوجّبة على احترام الهويّات الخاصة عندما تتعارض مع القوانين المشتركة؟ وإلى أيّ حدّ تقضي القوانين المشتركة بالضرورة على الاختلافات؟".([27])

([27]) **عندما تنفخ روح "الفانديه": مخاطر الذاتيّة المؤطّرة حول الهويّة – مقال – إفلين بياييه –** - Le Monde Diplomatique **– لوموند ديبلوماتيك العربية – عدد مارس 2009**. Editions Arabes

وهنا تتحدث الكاتبة عن الانقسام بين الحقوق التي يمكن أن يتيحها التعدد، وهو تساؤل يستبطن الإنكار ويبرر قمع المخالفين – ضمناً – وهي أيضاً تفصل "الآخر" عن "الأمة"، على طريقة الأغنيّة المصرية الشهيرة/ السخيفة: "إحنا شعب وانتو شعب"! وتضيف إفلين بياييه: "لا مفرّ من أن تقع جميع المؤلّفات التي تعالج الثورة الفرنسية ضمن دائرة النقاشات المعاصِرة جداً: خصوصاً وأنّ المطروح هنا هو الضرورة المفترضة لوجود "ديموقراطية منفتحة" قادرة على أخذ الفروقات في الحسبان، وهي النزعة الليبرالية الجديدة لتذويب الجمهورية، المتّهمة دائماً بالكونية وبسحق الخصوصيات".([28])

([28]) عندما تنفخ روح "الفانديه": مخاطر الذاتيّة المؤطّرة حول الهويّة – مقال – إفلين بياييه – - Le Monde Diplomatique Editions Arabes – لوموند ديبلوماتيك العربية – عدد مارس **2009**.

وهذه العبارة الأخيرة تشير إلى حقيقة مهمة هي أن الخطاب التشدد الوطني السائد في مصر بعد 30 يونيو 2013 أحد أهم روافده "فرنكفونية"، فالديموقراطية تهدد الدولة،......وهكذا. بل إن بعض من يُحسَبون تقليدياً على التيار الليبرالي في مصر يتحدثون بصفاقة منقطعة النظير عن أن ما حدث في 30 يونيو سيؤدي إلى "إعادة تعريف الديموقراطية" في العالم كله. وهذا معناه أننا انتقلنا من مرحلة تفسير (أو تبرير) ما حدث في 30 يونيو بوصفه مساراً فرعياً يعكس خصوصية الحالة المصرية، إلى تحويل الاستثناء إلى قاعدة، أي أن الغرب هو من سيبدأ من الآن في الدفاع (وربما الاعتذار عن نقائص ديموقراطيته) بوصفها تعبيراً عن خصوصية حضارية!!!!

....

ومن الصفحات الأكثر سواداً لولع بعض العلمانيين بسفك الدم قصة لم تزل فصولها ممتدة حتى الآن. فمن بين كل جرائم الإبادة تظل "مجازر الخمير الحمر" في كمبوديا الأكثر غرابة ووحشية وألماً. وقد وصل هؤلاء إلى السلطة ومعهم أيديولوجيا مجنونة، هي مزيج من اليسار الشيوعي والحنين إلى الحضارة الكمبودية القديمة. كانوا يكرهون الحداثة والتكنولوجيا، ولذلك دمروا بالإهمال جميع الصناعات. وراحوا يفرغون المدن كلياً، ويرسلون الناس جميعاً إلى معسكرات وتعاونيات زراعية بدائية تستخدم فيها الأكواب لحفر الأرض. وجعلوا الشبان الصغار مشرفين على "سير العمل" وحياة العمال، وقد زودوهم بأسلحة رديئة خالية غالباً من الذخيرة، لكن هذا لم يمنعهم من القتل. يقول أحد الناجين: "عندما أراد الخمير الحمر قتل الناس لم يكونوا يطلقون الرصاص، لأنهم أرادوا أن يوفروا الرصاص، لذلك كانوا يقتلون الناس بالعصي، أو رفساً مثل النمل، أو أحياناً كان يقطِّعونهم لأخذ المرارة

من أجسامهم أو أعضاء أخرى".([29])

وقد سجل الكاتب المعروف محمد عيسى الشرقاوي قصة هذه الجريمة مختصرة في مقال له بـ "الأهرام"([30])، جاء فيه:

"جريمة إبادة وحشية لنحو مليوني مواطن، لا تزال تبوح بأسرارها الشيطانية منذ جرت وقائعها في منتصف السبعينيات من القرن العشرين، وتنعقد هذه الأيام محاكمة لأربعة من الضالعين في اغتيال المواطنين".

ويضيف الشرقاوي:

([29]) كائن الإبادات – سمير عطا الله – مقال – الشرق الاوسط اللندنية – 21 يوليو – 2011.

([30]) الرجل الثاني والأقنعة المراوغة – مقال – محمد عيسي الشرقاوي – جريدة الأهرام – من 7/ 8/ 2011.

"بقصد كشف حقيقة نظام بول بوت الهمجي، الذي اختطف كمبوديا في الفترة من 1975 وحتى 1979. ففي 17 إبريل 1975، اجتاحت ميلشيات بول بوت بنوم بنه عاصمة كمبوديا. وأسقطت نظام المارشال لون نول". "وكان هذا المارشال قد أطاح بحكم الأمير سيهانوك عام 1970، وأرغمه علي الفرار الي المنفى في الصين، وما إن هيمنت حركة الخمير الحمر بقيادة بول بوت علي كمبوديا، حتي شرعت في تنفيذ مخطط أيديولوجي ماركسي غريب الأطوار". "فقد صدرت الأوامر الصارمة باخلاء العاصمة، ونزوح سكانها الي المناطق الريفية، واغتيال المثقفين والمهنيين تحت شعار الانتقام الطبقي. وحتى يمكن الاقتراب من تفهُّم الأفكار الحمقاء والهوجاء لعصابة بول بوت، قد يمكن القول إنهم كانوا يستهدفون تطبيق نظرية شيوعية من نتاج بنات عقولهم المريضة،

نظرية كانت تري أن المناطق الريفية وحدها هي التي يتحقق فيها الفردوس المنشود، وأن الفلاحين هم المنوط بهم انجازه، ولذلك عليهم أن يفلحوا الأرض منذ شروق الشمس وحتي غروبها". "ومن لا يقدر علي هذا العمل اليومي الشاق، يتعين اغتياله، واللافت للانتباه أن بول بوت وعصابته، وفي مقدمتهم الرجل الثاني نون تشيا أيديولوجي نظام الرعب والقتل الجماعي، كانوا يمارسون جرائمهم ضد الإنسانية من وراء ستار كثيف، ذلك أن الأوامر كانت تصدر باسم ما أطلقوا عليه "المنظمة" ويشير نفر من المؤرخين إلى أن بول بوت لم يفصح عن أنه "الرجل الأول" إلا في سبتمبر 1977، عندما ألقي لأول مرة خطاباً جماهيرياً زعم فيه أنه خلص البلاد من ألفي عام من اليأس".

"ولم يردع هذه العصابة الشيطانية موت مئات الألوف من المواطنين جوعاً ومرضاً. ولم يوخز ضميرها عمليات التعذيب المروعة في سجن تول سليج الذي كان يتولي أمره السفاح كاينج جيك، وقد مات في دهاليز التعذيب ما يربو علي خمسة عشر ألف مواطن، ووسط الفوضي الدموية للقتل والموت جوعاً اندلعت الحرب بين كمبوديا وفيتنام عام 1977، وتمكنت القوات الفيتنامية من غزو العاصمة الكمبودية في ذاك العام. وفرت العصابة الحاكمة وفلولها الي الحدود مع تايلاند. ولم تتبعثر بقايا قدرتهم علي المقاومة، إلا عندما تم اعتقال بول بوت عام 1998 وجري تقديمه للمحاكمة".

"لكنه مات أثر إصابته بسكتة قلبية، أما بقية أفراد العصابة فقد لاذوا بالفرار في الغابات، غير أنهم سرعان ما استسلموا. لكن السلطات لم تتخذ ضدهم أي إجراء حاسم واكتفت بتحديد إقامتهم في

مناطق نائية. وبعد هذه السنوات الطويلة، يتم الآن محاكمتهم. ويتبوأ "الرجل الثاني" مكان الصدارة في المحاكمة التي تشرف عليها الأمم المتحدة، باعتباره المسئول عن جرائم القتل والإبادة، بعد موت الرجل الأول".

والقصة غنية بالدلالات:

* المرجعية العلمانية في طبعتها اليسارية الأكثر بشاعة.

* التخفي (ولنتذكر هنا "أيقونة الطرف الثالث" التي ما تزال تشغل المصريين).

* الرؤية الأيديولوجية المغرقة في التطرف، وكثيرون يشيعون بإلحاح أنها سمة لصيقة بالإسلاميين المتطرفين وحدهم.

* القناعة الكاملة بـ "الحق في الوصاية على المجتمع"، وادعاء الحق الحصري في "حمايته"!

* القناعة الكاملة – ولا بأس أن تضيف: الصفيقة – في فرض هذه الأيديولوجيا بالقوة على المجتمع.

* القناعة الكاملة بمشروعية الاستباحة وصولاً إلى الإبادة.

* الانحياز الجنوني إلى تصور رومانسي يقدس "الريف" (ولنتذكر هنا بعض الشارات المصرية في الاصول والتفاصيل:

- تحالف قوى الشعب العامل أي العمال والفلاحين
- الإلحاح على صورة مصر في كثير من الأعمال الفنية والنصوص الأدبية كـ "فلاحة".
- الإصرار الغامض/ المشبوه على نسبة الـ 50 % من أعضاء البرلمان عمال وفلاحين). .

ويضاف إلى كل ما سبق هذا ملاحظتان:

الأولى: أن الإعلام الذي يفترض أنه "مستقل" يستدعي "الأسوأ" من رموز التاريخ والحاضر للتشنيع على خصومهم (بن لادن – سيد قطب – .....) بينما مراحل بأكملها من تاريخ اليسار يجري التعتيم عليها عمداً.

الثانية: التماسك المدهش الذي تتسم به شرائح من النخبة التي تتباين قناعاتها تجاه كثير من القضايا، ولا تجد أي تفاوت يذكر في قناعتهم بشعار: "العلمانية هي الحل"!

وعطفاً على قضية التعتيم عليها – وهي ظاهرة أوسع نطاقاً بكثير من الحالة المصرية – نتوقف أمام واقعة وشهادتين. أما الواقعة فهي أنه بينما يجري توجيه سيل من الاتهامات لتيار سياسي بأكمله، وهي اتهامات متصلة بتهديد الأمن القومي المصري بدأت حتى قبل عزل الرئيس المنتخب (وهي اتهامات يفصل فيها القضاء) بينما يتم تجاهل اتهامات مماثلة تشير أصابع الاتهام فيها إلى رموز يسارية. ولن أتوقف هنا فضيحة "كوبونات النفط" التي تم التحقيق فيها في عدة دول ليس من بينها مصر – فضلاً عن أنه تم التحقيق فيها داخل الأمم المتحدة – ولن أقف أمام شهادة مصورة بالصوت والصورة ومحتواها منشور في مجلة روزاليوسف المصرية. وصاحب الشهادة ديبلوماسي عراقي كان يعمل مع نظام صدام حسين اعترف في حوار مع الصحافي وائل الإبراشي على شاشة "دريم" بأنه سلم شخصيات عامة مصرية – بينهم صحفيون – رشاوى من نظام صدام حسين. وسأكتفى هنا بقصة

أخرى أخطر. ولا بأس من أن أشير هنا إلى أن هذه المعلومات كانت موضوع مقال رفضت جريدة الدستور – برئاسة تحرير أيمن شرف – رفضت نشره بسبب ما ورد فيه بشأن الوزير الناصري الخطير سامي شرف، ولنبدأ القصة من أولها.

فبحلول نهاية الستينات كانت مصر تبدو قاعدة مستقرة للتأثير السوفيتي في الشرق الأوسط. فبالإضافة إلى أكثر من 20 ألف مستشار في مصر، كانت المخابرات السوفيتية (KGB) قد توغلت في البيروقراطية المصرية على مستوى يثير الإعجاب. وكان بين عملائها سامي شرف وهو موصوف في الوثيقة بأنه: (President Gamal Abdel Nasser s intelligence chief). وكان هناك عدد من النكات تتداول في موسكو عن "جمهورية مصر السوفيتية".

وما سبق ليس لائحة اتهام مسيسة ضد شخص أو فترة بل وارد في وثيقة للكي جي بي تحمل رقم 4923/ 25، مؤرخة في 3 نوفمبر 1976 ضمن وثائق (سياسات مصر تجاه الاتحاد السوفيتي وأمريكا) ومصنفة (سري للغاية). ومنشورة في كتاب عنوانه: "مزيد من التعليمات من المركز: الملفات الأكثر سرية عن عمليات الكي جي بي الخارجية"، لكريستوفر أندرو وأوليج جورديفسكي وطبع للمرة الأولى عام 1992. وفي كتاب تالٍ هو "الكي جي بي ومعركة العالم الثالث" (2005) لفاسيلي ميتروخين وهو ضابط بالمخابرات السوفيتية وصف كتابه "أرشيف ميتروخين" عند صدور الجزء الأول منه إنه أكثر الأعمال الوثائقية أهمية على الإطلاق عن الكي جي بي، كما أدى صدوره للكشف عن جواسيس في أكثر من دولة غربية. في الجزء الخاص بالعالم الثالث قال ميتروخين إن السوفييت أمكنهم تجنيد "عملاء

مفاتيح"، بينهم سامي شرف.
وبدأت القصة قبل سنوات، قصة اتهام الوزير السابق برئاسة الجمهورية الذي كان أشد الفترات حساسية خلال حكم عبد الناصر "حامل ختم الزعيم"، فضلاً عن دوره في الخطير في رئاسة الجمهورية. ففي كتابه: "الحكومة الخفية في عهد عبد الناصر" (1985) اتهمه اللواء جمال حماد "مؤرخ الثورة" بالعمالة للمخابرات السوفيتية إلى كتاب صدر عام 1974 عن ريدارز دايجست للكاتب الأمريكي جون بارون عن الشبكات السرية السوفيتية في مصر. وقد قام الوزير السابق سامي شرف بمباشرة نزاع قضائي مكذباً ما ذكره جمال حماد. وفي يناير 1989 أصدرت المحكمة حكمها ببراءة جمال حماد الذي اعتبر الحكم دليلاً دامغاً علي عمالة سامي شرف للمخابرات السوفيتية وجاء في حيثيات الحكم أن: "الثابت من كل ما نشر عن تلك الواقعة في الصحف والكتب المصرية

والاجنبية من غير المتهم ...فإن واقعة اتصال المدعي بالمخابرات السوفيتية هي واقعة قد أصبحت بالفعل في حوزة الجمهور لما استقرت به علي أنها واقعة سليمة ومعروفة ومن ثم فإنه من واجب المؤرخ ان يتناول هذه الواقعة بالنقد والدراسة والبحث. الأمر الذي يخرجها عن دائرة القذف".

والقضية ليست شخص سامي شرف ولا المساجلة بين المؤرخ والوزير – وكلاهما من كبار رجال يوليو – وهي بالطبع ليست قضية تصفية حسابات مع عصر عبد الناصر الذي انتهى قبل أربعين عاما وما زال رجاله يمسكون بمفاصل النظام من بقايا التنظيم الطليعي ومنظمة الشباب، بل هي قضية "الأمن القومي" الذي يستخدمه تيار بعينه فزاعة ضد مخالفيه. وما دام الجنرال (عامر) وليس الزعيم (ناصر) هو من تحمَّل مسئولية هزيمة يونيو، فإن الفصل في واقعة اختراق المخابرات السوفيتية لقمة النظام لن تكون إدانة لا لـ "الزعيم" ولا للحقبة الناصرية، لكن بقاء الاتهام معلقاً

مع تراكُم المعلومات التي تؤكده من مصادر مختلفة يشكل تساهلاً فيما لا يجوز التساهل فيه، وهو حقنا في أن نعرف الحقيقة.

...........أما الشهادتان فتكشفان عن الجذور التاريخية لبعض مصادر العنف في الحركة الإسلامية (والوطنية) المعاصرة وهو رافد يساري، وأنبه هنا مرة أخرى إلى أن نطاق الظاهرة لا يقتصر على مصر.

الشهادة الأولى: للكاتب الشاعر الكردي السوري المقيم في بلجيكا هوشنك أوسي ونشرتها مجلة "نزوى" العمانية تحت عنوان: "عن ذهنيّة الهيمنة وسيكولوجيّة الإذعان". يقول هوشنك: "في مطالع الشباب، وتحديداً، مرحلة الاندفاع الثوري، القومي _ اليساري، وأثناء العوم في الخيالات التحرريّة واليوتوبيا الثوريّة، حين كنّا نقرأ كتب الزعيم الصيني ماو تسي تونغ، وتحليلاته وأقواله، ضدّ "أعداء الشعب" وضدّ "الليبراليّة"، وحول "حرب التحرير

الشعبيّة طويلة الأمد في الصين"([31])... ويضيف هوشنك: "كنّا نشعر بكره عميق لأولئك "الأعداء"، ونعتبرهم أعداءنا، لكونهم اعداء الشعب الصيني، وأعداء الاشتراكيّة والعدالة الشيوعيّة. وكذا الحال، حين كنّا نقرأ "أسس اللينينيّة" لجوزيف ستالين (1878 – 1953)، أثناء حديثه عن أعداء البروليتاريا. وكنا ننظر إلى "البرجوازيّة الصغيرة والكبيرة"، على أنهم شياطين ومجرمون ومصّاصو دماء الشعوب وأعداؤهم، لا مناص من تصفيتهم، عبر فرض دكتاتوريّة البروليتاريا. كنّا نعتبر العدالة وخلاص البشريّة، في الواحديّة؛ فكر واحد، رأي واحد، طبقة واحدة...، معتبرين تنوّع الآراء

([31]) عن ذهنيّة الهيمنة وسيكولوجيّة الإذعان – دراسة – هوشنك أوسي – مجلة نزوى الفصلية – مؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلان – العدد 72 – أكتوبر 2012. رابط الصفحة:

http://www.nizwa.com/articles.php?id=3919

واختلافها وتباينها، مكمن الشرور والضلال والخراب والفتنة ومصدر إثارة البلبلة. هكذا، كنّا مأخوذين، بل مأسورين بأفكار ماو وستالين وتبريراتهما لمحاربة الأعداء، ونعتبرهما ملائكة العدالة والاشتراكيّة ضدّ شياطين العالم وأعداء الشعوب من الرأسماليين والبرجوازيين والامبرياليين واعوانهم. هكذا، كانت قراءتنا أحاديّة، وسطحيّة، عاطفيّة، يكتنفها الاذعان لنسق معيّن من التفكير".([32])

وفي إشارة إلى سمة قد تسهم في فهم أحد أسباب حالة الاستقطاب في المشهد المصري، وبخاصة بعد عزل الرئيس مرسي، وهي حالة تبدأ طفولية وتنتهي إجرامية، يقول هوشنك: "وبالتزامن مع ذلك، كان تفكيرنا، الطفولي، ينطوي على قدر كبير من البراءة

([32]) عن ذهنيّة الهيمنة وسيكولوجيّة الإذعان – دراسة – هوشنك أوسي – مجلة نزوى الفصلية – مصدر سبق ذكره.

والطهرانيّة، لكوننا لم نكن قد تلوّثنا بعد بآفات السياسة والسلطة وملوّثاتها، وكان ينطوي تفكيرنا على نسبة من الشيطانيّة والعدوانيّة، (التي زوّدتنا بها الآيديولوجيّات الحزبيّة، اليساريّة – القوميّة) ضدّ الآخر/ العدو!".[33]

"وقتئذ، كنّا أغراراً، للتوّ نخطو خطواتنا الأولى نحو الثوريّة وضمن السياقات السياسيّة والتنظيميّة التحرريّة، دفاعاً عن قضيّة شعب وحقوقه العادلة وتقديس العنف الثوري، باعتباره السبيل الوحيد الأوحد لتخليص العالم من شرور الاستعمار والامبرياليّة والرجعيّة"!.

---

[33] عن ذهنيّة الهيمنة وسيكولوجيّة الإذعان – دراسة – هوشنك أوسي – مجلة نزوى الفصلية – مصدر سبق ذكره.

"والآن، حين ننظر للوراء، ونعيد النظر في ما قرأناه، نعي مدى خطورة أن يقع الكثير من الشباب الثائر الآن، فيما أوقعنا أنفسنا فيه، من تهويمات ويوتوبيّات ثوريّة، وخيالات تحرريّة مجنّحة، بررنا فيها، كل فظاعات وبشاعات الثورات، بطريقة ميكيافلليّة وقحة، على أن الثورة، مفتوحة على كل التجاوزات والجرائم والإرهاب الفظاعات...، باعتبارها، في المحصّلة، نتجت عن الصراع لأجل تحقيق أهداف وقيم نبيلة وسامية!".

في أيّامنا هذه، وقياساً بتجاربنا المتواضعة السابقة، وعطفاً على تجارب الشعوب والمجتمعات الأخرى، يمكن أن نرى تقاطعات كبيرة، بين ما عايشناه ونعايشه، وبينما عاشته شعوب ومجتمعات أخرى، حين سادت فيها ذهنيّات وأنظمة شموليّة، قامت باستخدام الشعب أبشع استخدام، للوصول الى السلطة والحكم والهيمنة، بحجّة بناء دولة اللاسلطة، ودولة اللادولة، (الدولة

الكومينياليّة الشعبيّة الديمقراطيّة). وفي الوقت عينه، كان هنالك استعداد عميق للإذعان والرضوخ للهيمنة واستمراء الخنوع والإذلال والمهانة، في فترات معيّنة من تاريخ الشعوب. ومنعاً لانزلاق مجتمعاتنا نحو دولة الدوغما العقيديّة، القوميّة او الدينيّة أو الآيديولوجيّة، بصرف النظر عن أشكال هذه الدولة؛ الدولة/ الأمّة، الدولة القوميّة، الدولة الطائفيّة، الدولة/ الحزب، القائد". ([34])

وفي استعادة مفيدة جداً لقرع أجراس الإنذار للتحذير مما يمكن أن يؤول إليه المشهد المصري في ظل حمى تطرف وطني تحمل في طياتها مخاطر قد تكون غير مسبوقة. يقول هوشنك مستعيداً تجربة الزعيم الصيني ماو تسي تونج: "يمكن العودة لتجربة الزعيم الصيني ماو تسي تونغ (1893 – 1976)، وخططه

([34]) عن ذهنيّة الهيمنة وسيكولوجيّة الإذعان – دراسة – هوشنك أوسي – مجلة نزوى الفصلية – مصدر سبق ذكره.

ومشاريعه المجنونة والضرائب التي دفعها الشعب والمجتمع الصيني جرّاء الانقياد المجنون لتلك المشاريع والخطط والأفكار البلهاء، لئلا ينخدع شبابنا ببريق الخطابات والمشاريع اليوتوبيّة الفضفاضة، التي يطرحها البعض هنا وهناك، وألاَّ يتخذوا من أيّ زعيم، كائنا من مكان، إلهاً لهم، يعبدونه، ويجعلون انفسهم قرباناً له، ويستمرئون الموت في سبيل حياته. فعبادة الإنسان لحجر، أهون من عبادة الانسان للإنسان. ذلك أن الحجر، لن يأمر عبده بارتكاب جريمة، بداعي التقرّب منه، إلاّ ان الانسان، القائد – الإله، يمكن أن يأمر عبده بارتكاب الجريمة، تقرّباً منه واخلاصاً له، ويمكن أن يجرجر مجتمعاً وشعباً ووطناً نحو حروب وكوارث وويلات، وجعلها حقل تجارب لأفكاره وطموحاته

ومشاريعه وسياساته الرعناء".([35])

الشهادة الثانية: وردت في تقرير لإذاعة هولندا العالمية عنوانه: "الجهاديون يستلهمون تراث العلمانيين الاستشهادي" لمحمد عبد الحميد عبد الرحمن. يقول في تقريره: "ذُهِلِ الملايين في كافة أنحاء العالم خلال العقدين الماضيين برؤية الأشرطة المسجلة للاستشهاديين – أو الانتحاريين – وهم يتحدثون أمام الكاميرات بثقة للانتصار لقضيتهم، قبل الإقدام على العمليات الانتحارية أو الاستشهادية التي أودت بحياة الآلاف".([36])

([35]) عن ذهنيّة الهيمنة وسيكولوجيّة الإذعان – دراسة – هوشنك أوسي – مجلة نزوى الفصلية – مصدر سبق ذكره – بتصرف.

([36]) الجهاديون يستلهمون تراث العلمانيين الاستشهادي – تقرير – محمد عبد الحميد عبد الرحمن – موقع إذاعة هولندا العالمية – 28 سبتمبر – 2010 – الرابط:

http://www.rnw.nl/arabic/article/191711

ثم يتساءل كاتب التقرير: "ما الذي يدفع البعض للتخلي عن حياتهم نفسها والتضحية بها؟ هل ثـَم هدفٌ أغلى من الحياة نفسها؟ كيف يـُصنـَع الانتحاري وما هي البيئة التي تنتجهم؟ وكيف انتقل الاستشهاد كمفهوم من الحقل الديني إلى سياقات علمانية صرفة ليعود مرة أخرى في لبوس المتدينين من أعضاء الجماعات الجهادية؟"([37]) ويجيب كاتب التقرير: "الباحث العراقي الهولندي مه ريوان قانع حصل مؤخراً على شهادة الدكتوراه من جامعة أمستردام في العلوم السياسية الأسبوع الماضي بأطروحة تناول فيها بالتحليل ظاهرة الاستشهاد في سياقيها العلماني والديني. لم يكن مه ريوان شخصياً

([37]) الجهاديون يستلهمون تراث العلمانيين الاستشهادي – تقرير – محمد عبد الحميد عبد الرحمن – موقع إذاعة هولندا العالمية – 28 سبتمبر – 2010 – الرابط:

http://www.rnw.nl/arabic/article/191711

طارئاً على موضوع بحثه، فقد انضم لحركة مقاومة كردية ضد نظام صدام قبل أن يبلغ العشرين من عمره وعرف معنى التضحية عن قرب شديد".([38])

ولنقرأ بقية التقرير حرفياً، ففي حديث لـ "إذاعة هولندا العالمية"، "يرى الباحث أن ظاهرة الاستشهاد وما استتبعها من هجمات انتحارية، ليست بالجديدة على أية حال ولا يمكن أن نطمئن أبداً إلى أنها ظاهرة تستمد عنفوانها من العقائد الدينية، وخاصة الإسلام فحسب. "قبل وقت طويل جداً من الهجمات الاستشهادية/ الانتحارية الإسلامية التي انطلقت مع انتصار الثورة الإسلامية في إيران، تأسست الدولة القومية الأوربية الحديثة على مبدأ

([38]) الجهاديون يستلهمون تراث العلمانيين الاستشهادي – تقرير – محمد عبد الحميد عبد الرحمن – موقع إذاعة هولندا العالمية – 28 سبتمبر – 2010 – الرابط:

http://www.rnw.nl/arabic/article/191711

خلق المواطن المستعد للتضحية من أجل الوطن أو القومية، التضحية إلى حد بذل النفس فداء في سبيل الدولة القومية ذلك الكيان الذي أنتجه الحداثة الأوربية (...) يمكن أن نقتفى آثار مثل هذه الأفكار بسهولة في كتابات أساطين فلسفة الدولة القومية الأوربية مثل هوبز وجان جاك روسو وهيغل". و"حسب مه ريوان قانع، الذي يخلص من ذلك إلى ضرورة مراجعة الفكرة الشعبوية الشائعة التي تربط الهجمات الانتحارية أو الاستشهادية بالجماعات الجهادية الإسلامية التي ظهرت في الربع الأخير من القرن الماضي، وأمسكت بأنفاس العالم بهجمات الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 على مركز التجارة الدولي في نيويورك".([39]) وتحت عنوان:

([39]) الجهاديون يستلهمون تراث العلمانيين الاستشهادي – تقرير – محمد عبد الحميد عبد الرحمن – موقع إذاعة هولندا العالمية – 28 سبتمبر – 2010 – الرابط:

"التراث العلماني" يقول كاتب التقرير: "يرى الباحث أن فكرة التضحية بالذات قد أعيدت صياغتها بالكامل في كنف الدولة القومية الأوربية كفكرة علمانية خالصة، ويقول: "حتى الجماعات الجهادية الإسلامية الحديثة لم تعد إلى أصل ديني سابق للفكرة، بل تبنت تراث الاستشهاد العلماني الأوربي الذي أنتج خلال القرنين الماضيين وأسست عليه خطابها الذي يعتبر خطابا سياسياً بالدرجة الأولى." "لكن ماذا عن الدوافع بالنسبة للانتحاريين الجهاديين، ألا تشكل الوعود بحياة أخرى أبدية في الجنة حافزا لا يتوفر للعلمانيين؟ لا ينكر قانع أثر هذه الوعود لكنه يرى أن هذه الوعود ليست الدافع الحاسم للتضحية بالذات، خاصة وأن الفقه الإسلامي التقليدي يستنكر ويحرم الانتحار وطلب الموت لأي سبب كان، كما أن الشهادة في الإسلام التقليدي إطار

---

http://www.rnw.nl/arabic/article/191711

واسع جدا ويشمل حالات لا علاقة لها بالتضحية بالذات مثل الغرق والحريق والدفاع عن المال والعرض. هنالك دراسات ومقابلات أجريت مع استشهاديين فشلوا في تنفيذ عمليات انتحارية، تثبت أن الحور العين وغيرها من وعود الحياة الأخرى لم تكن هي الحافز الأساسي." ([40]) وتحت عنوان "الاستشهادي الملحد" يستطرد كاتب التقرير قائلاً إن: "الرغبة في التضحية بالذات تتولد من ظروف حياتية معينة تتميز بانسداد الأفق والشعور بالمهانة والعجز، ويستوي في ذلك المؤمن والملحد والذي لا يعبأ بالدين. تصاحب تلك الظروف تعبئة قوية وشديدة التأثير في جماعة صغيرة كانت أو كبيرة

([40]) الجهاديون يستلهمون تراث العلمانيين الاستشهادي – تقرير – محمد عبد الحميد عبد الرحمن – موقع إذاعة هولندا العالمية – 28 سبتمبر – 2010 – الرابط:

http://www.rnw.nl/arabic/article/191711

تعلي من قيمة الفداء والتضحية وتعد الشهداء بالخلود وسيان في الجنة كان أو في أفئدة الناس ومسيرة التاريخ الصاعدة. ومما عزز هذا الاتجاه، حسب مه ريوان قانع، أن الوعود بالحياة الأبدية للشهداء في الحياة الأخرى ظلت قائمة منذ بزوغ الأديان التوحيدية، لكن ظاهرة الإستشهاديين لم تتوطد إلا بعد ظهور الدول القومية بوقت طويل. الهجمات الانتحارية، إذا ليست حكراً على الحركات الجهادية الإسلامية ولا هي التي ابتدعتها".([41]) ويضيف كاتب التقرير: "خبر العالم المعاصر الهجمات الانتحارية بطياري الكاميكازي اليابانيين إبان الحرب العالمية الثانية، عمليات نمور التاميل في سيريلانكا ثم انتحاريي حزب العمال الكردستاني والمنظمات

([41]) **الجهاديون يستلهمون تراث العلمانيين الاستشهادي – تقرير – محمد عبد الحميد عبد الرحمن – موقع إذاعة هولندا العالمية – 28 سبتمبر – 2010 – الرابط:**

http://www.rnw.nl/arabic/article/191711

الفلسطينية العلمانية بل حتى الحزب الشيوعي اللبناني وبعض الانتحاريين اللبنانيين كانوا مسيحيين". وتحت عنوان: "الخلود الأرضي" يقول كاتب التقرير: "هؤلاء الشهداء/ الانتحاريون لم يدفعهم وعد سماوي بل توق للخلود على الأرض، بين الناس وفي ذاكرتهم. ومن الملاحظات الفارقة التي طرحتها دراسة مه ريوان قانع، أن التنظيمات الجهادية الإسلامية التي اختطفت الأضواء خلال العقدين الماضيين قد اقتفت أثر الحركات العلمانية والماركسية في تمجيد الشهادة دون أن تبلغ شأوها. أنتج اليساريون الشيوعيون في الشرق الأوسط أدباً وشعراً وغناء كثيفاً ومديداً لشهدائهم وأطلقوا مراثي وبكائيات لا نهاية لها للذين سقطوا منهم، فيما يقبع الجهاديون خلفهم بفراسخ في هذا المجال، مما يؤكد مرة أخرى أن فكرة التضحية والشهادة لا زالت

ذات طعم يساري في منطقتنا. يستعد مه ريوان الآن لمرحلة جديدة مع التدريس الجامعي والبحث الأكاديمي والكتابة، وينظر لماضية الشخصي بأعين جديدة ووعي مغاير خلص إلى طرح كافة أشكال العنف جانباً – كأداة للتغيير السياسي – مهما كانت الظروف والدواعي، والتوسل بالعمل السلمي لتحقيق أي هدف كان".[42]

....

---

[42] **الجهاديون يستلهمون تراث العلمانيين الاستشهادي – تقرير – محمد عبد الحميد عبد الرحمن – موقع إذاعة هولندا العالمية – 28 سبتمبر – 2010 – الرابط:**

http://www.rnw.nl/arabic/article/191711

وفي واحدة من الأدبيات النادرة التي تدعو إلى الإبادة كسبيل إلى التقدم كتب أحمد المسلماني (المستشار الإعلامي للرئيس المصري المؤقت المستشار عدلي محمود منصور)، كتب المسلماني تحت عنوان: "جريمة رائعة"([43]): "لا يقف المؤرخون طويلاً لدي واقعة عظيمة وجريمة جليلة قدمها محمد علي باشا إلي مصر، لا يقفون بما يليق أمام واحدة من أروع المذابح في التاريخ، وواحدة من أفضل المآسي الإنسانية والمآثر السياسية". "قبل مائة وسبعة وتسعين عامًا قام محمد علي بمذبحة القلعة الشهيرة، كان ذلك في أول مارس عام ١٨١١،......أراد محمد علي أن ينتهي من المماليك في مصر، فدعاهم إلي حفل عشاء أخير،

([43]) جريمة رائعة – أحمد المسلمانى – مقال – المصري اليوم – ٣/ ٣/ ٢٠٠٨.

ثم جري حصادهم واحدًا وراء الآخر.. فلم يفلت منهم إلا مملوك واحد، انتهي أثره في سوريا".ويضيف المسلماني: "إنسانياً.. لا يمكن أن يقف أحد مع مذبحة جماعية راح فيها كل من حضر، وإنسانياً لا يمكن أن يقبل أحد وقائع قتل وغدر مفجعة تزاحمت فيها الجثث فوق الخيول وتحت الأقدام، وإنسانياً لا يمكن أن يرتضي أحد أن يتحول حفل عشاء إلي حفل عزاء، تناول فيه الضيوف فاتحة شهية ونهاية حياة".

"غير أنني أقف تمامًا علي النقيض من ذلك الحسّ الإنساني البدائي، لأكون واحدًا من الذين يحترمون ويقدرون هذه المذبحة الرائعة".

ويؤكد مستشار الرئيس رؤيته الإصلاحية دون لبس قائلاً: "إنني واحد ممن يرون أن بعض رؤي الإصلاح والتقدم لا تحتمل ترف الحوار والجدل والإقناع، كما أنها لا يمكنها أن تبقي طويلاً أسيرة حرب باردة بين الرأي والرأي الآخر. وأؤمن كذلك بأن كثيرًا من مشروعات النمو في الحالة المصرية وفي الثقافة العربية قد أربكها كثرة الحوار، وصخب الإفتاء والإنشاء"! "وظني أن عددًا وفيرًا من نماذج التقدم قد أتت وعلت في ظروف حاسمة لا أجواء مرتبكة، وفي بيئة واضحة لا في غابة من الانتماءات والانحيازات والأيديولوجيات المتصارعة. وفي حالة "مذبحة القلعة" كانت مصر أمام خيارين واضحين، خيار التخلف الذي يحميه المماليك بالقول وبالسلاح، وخيار التقدم الذي أتي به محمد علي تعليمًا وتفكيرًا وجيشًا وإمبراطورية، كانت المعركة صافية لا لبس فيها، بين عصابات منظمة يقودها

حفنة من العبيد، وبين أمل وطني وحضاري جامع لن يبدأ إلا علي جثث تلك العصابات". "لم يكن الحوار ولا الجدال ولا موائد المفاوضات لتجدي مع عصابات ذات مصالح كبري ومزايا عملاقة، من مال وأطيان ونفوذ ورجال، لم يكن الحوار ممكناً مع أناس يمتلكون الأرض ومن عليها، ولا يعرفون غير القتل وسفك الدماء ومؤامرات القصور والقري من أجل زيادة ما يملكون". "كان قرار محمد علي القضاء علي المماليك واحدًا من أعظم القرارات إن لم يكن أعظمها جميعًا، وإذا كان لمحمد علي باشا مؤسس مصر الحديثة إنجازان يفوقان مجمل ما أنجز ومجمل ما أنجزت مصر في القرنين الأخيرين، فهما بناء الجيش والقضاء علي المماليك. لقد أسرفت كتب التاريخ بوصف ما جري بالمذبحة، لتجري إدانة محمد علي والتعاطف مع المماليك، وتقديري أن الصواب هو "معركة القلعة" لا "مذبحة القلعة"،

فهي معركة بين محمد علي والمماليك، ولكنه اختار فيها أن تكون "معركة نصف بيضاء"، أي أن تسيل دماء العدو وحده في مكان أنيق ووقت محدود".

ثم يتساءل المسلماني:

"ما الذي كان سيحدث لو بقي المماليك في مصر؟

ماذا لو كان محمد علي قد انهزم ومضى المماليك معنا إلى اليوم؟ إنني في ذكري "معركة القلعة" المجيدة، التي انتصر فيها التقدم علي التخلف، والمعرفة علي الجهل.. وفلاسفة النهضة علي أمراء العبيد.. لأتذكر محيياً ومقدرًا ما فعله الزعيم العظيم محمد علي، في تلك الجريمة الرائعة".([44])

([44]) جريمة رائعة – أحمد المسلمانى – مقال – المصري اليوم – ٣/ ٣/ ٢٠٠٨.

انتهى كلام المسلماني وتبقى الصدمة والدهشة ... والخيبة!

وقد لفت نظري بشدة أن المسلماني لا يكتب بلغة المتردد أو المستشعر للحرج، بل لا يكتب حتى بلغة محايدة، وإنما يكتب بحرارة المتحمس وولَه المتصوف وحماسة من ينجز هدفاً نبيلاً، فيما هو يتحدث بدم بارد عن سفك الدم!

ويبقى أن ما رصده الدكتور عبد الوهاب المسيري فيما أوردناه سابقاً من انحراف في الرؤية الغربية لمعنى "التقدم" هو نفسه ما ينحاز إليه المسلماني بوصفه من "ضرورات التقدم"!

وقد تتالت الشواهد الصادمة/ الكاشفة على أن فكرة "ثمن التقدم" في أكثر صورها دموية تمثل فعلاً قطاعاً عرضياً في وعي النخبة المدنية التي طالما قذفت خصومها الإسلاميين بقائمة طويلة من الاتهامات تجعلهم "الوحيدين" على ساحة السياسة المؤمنين بعقيدة "الخلاص بالدم"!!

ومن ردود الفعل التي تكشف عن وجود "قناعات نظرية وأخلاقية"، بمعنى أنه ليس مجرد فعل واقعي، فقد اعترف الدكتور حازم الببلاوي رئيس الوزراء بأن عملية فض الاعتصام ربما تشبه الأعمال الوحشية، لكنه أكد أن مثل هذه الأعمال اضطرارية واستثنائية ولا تمثل أسلوب حياة. وكشف مقطع فيديو لمقابلة للببلاوي مع شبكة "أيه بي سي" الأمريكية اعترافه الضمني قائلا "هناك أوقات استثنائية ترتكب فيها الأعمال الوحشية ولكن هذا لايعني أن هذا يصبح أسلوب حياة.

وشبه الببلاوي مقتل أكثر من ألف من أنصار المعزول أثناء فض الاعتصامات بدخول الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية وأعمالها الوحشية في فيتنام بما يشبه اعترافاً ضمنياً بحدوث أعمال مماثلة ضد أنصار الدكتور محمد مرسي الأمر الذي أثار دهشة مراسلة الشبكة في القاهرة مارثا رادرتز قائلة "إنها مقارنة مذهلة، لكن رئيس الوزراء المصري قال بأنه لا يشعر بأي تأنيب ضمير بسبب ما حدث ولن يتراجع".([45]) وفي رد فعل ملفت يشكل نموذجاً –

([45]) **بالفيديو: الببلاوي يعترف: فض الاعتصام عمل وحشي لكنه استثنائي – تقرير: مصطفى شعبان – موقع جريدة المصريون – 29 أغسطس 2013 – الرابط:**

مجرد نموذج – لثقافة التسامح مع سفك الدماء إلى حد التبرير، قال محمود بدر المنسق العام لحركة تمرد التي ساهمت في الإطاحة بالرئيس المصري محمد مرسي المنتمي لجماعة الإخوان المسلمين "إن الضحايا الذين قتلوا بعد الإطاحة به ثمن ضروري لإنقاذ مصر من الجماعة". ومثل كثير من المصريين الذين يعتبرون أنفسهم من الليبراليين ليس لدى بدر

---

http://almesryoon.com/%D8%AF%D9%81%D8%AA%D8%B1-%D8%A3%D8%AD%D9%88%D8%A7%D9%84-%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%B7%D9%86/229585-%D8%A8%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%8A%D8%AF%D9%8A%D9%88-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%A8%D9%84%D8%A7%D9%88%D9%8A-%D9%8A%D8%B9%D8%AA%D8%B1%D9%81-%D9%81%D8%B6-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B9%D8%AA%D8%B5%D8%A7%D9%85-%D8%B9%D9%85%D9%84-%D9%88%D8%AD%D8%B4%D9%8A-%D9%84%D9%83%D9%86%D9%87-%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D8%AB%D9%86%D8%A7%D8%A6%D9%8A

صبر يذكر على جماعات حقوق الإنسان التي تصف الحملة بأنها انتكاسة للديمقراطية. ودافع عن سلوك الجيش في اعمال العنف التي تبعت عزله. وقال إنه لم ير خطأ فيما قام به الجيش.([46])

وتصريحات محمود بدر صادمة جداً جداً إذا قورنت بتصريحات فيها اعتراف غير متوقع من وزير الثقافة المزمن في عهد مبارك فاروق حسني الذي قال: "كنّا مقصّرين..... كانت تُبنَى دولة، على حساب الإنسان"!!!([47])

أما محمود بدر الشاب "الثوري" فلا مانع عنده من الحل على حساب الإنسان!!!

([46]) منسق "تمرد": الضحايا الذين قتلوا ثمن ضروري لإنقاذ مصر من الجماعة – تقرير – جريدة المصريون الإليكترونية – 18 أغسطس 2013.

([47]) فاروق حسني: في زمن مبارك كنا نبني الدولة على حساب الإنسان – جريدة الحياة اللندنية – القاهرة – إيمان علي – السبت ٢ فبراير ٢٠١٣.

ويرصد الدكتور عمرو الزنط هذه الحالة من التطرف الوطني الجامح واضعاً يده على خطيئتين تتحكمان – حتى كتابة هذه السطور – في المشهد المصري: أولاً: تقديس الدولة. وثانياً: الدعوة السافرة إلى التخلص من الآخر تحت وطأة وهم "التطهير". ففي مقال عنوانه: "عن أخطار تطهير مصر"([48]) يقول الدكتور عمرو الزنط: "يتساءل البعض عما إذا كانت مصر تسير في اتجاه دولة فاشلة.. أو فاشية. ليس بالضرورة. لكنها بالقطع تسير في سبيل الدولة المعزولة، وربما التطهيرية. فالعزلة التي عاشتها مصر منذ ستة عقود أدت إلى بلد ليس فقط منعزلاً، إنما معزول تماماً عن ركب الحضارة المعاصرة. لأن في ظل الزعيق الإعلامي العصبي تبدو عمليات "التطهير" الجارية حالياً كحرب مع معظم العالم

([48]) عن أخطار تطهير مصر – مقال – د. عمرو الزنط – جريدة المصري اليوم – ٣١/ ٨/ ٢٠١٣.

المعاصر، داخلياً وخارجياً: ضد عدو خارجي وآخر داخلي تعينهم الدولة".

ومن الشواهد التي تؤكد سيطرة "هستريا التطهير" التي يحذر منها الدكتور عمرو الزنط ما قاله الدكتور محمود العلايلي عضو الهيئة العليا لحزب المصريين الأحرار إن "المواطن المصري في حاجة لدستور جديد بخلاف دستور 2012 المهين لأننا لا نتمنى أنه بعد ثورة يوليو التي خرج فيها الشعب لاسقاط النظام يلتصق بدستور2012. فالثورة دائماً تأتي بنظام جديد ودستور عام 2012 جزء من النظام القديم". وأضاف العلايلي أنه "حتى لو تم تعديل الدستور الحالي بنسبة 100% فسيكون اسمه دستور 2012 المعدل ما يعني أننا نستخدم دستوراً صنعه الإخوان".([49])!!!

([49]) القوي السياسية: إعلان ينص علي كتابة دستور جديد..أو تعديلات جذرية – تقرير: سامية أبو النصر – هاني عزت – عماد الدين صابر – حازم أبودومة – جريدة الأهرام المصرية – 11 سبتمبر 2013.

ويضع الزنط يده على الجذر السياسي لهذا المنطق الإقصائي قائلاً: "هذه الأحوال عرفتها مصر من قبل في إطار حقبه الستينيات. كان الهدف آنذاك هو تثبيت وتكريس الدولة وسيادتها، آما الآن فصار الشعار "إنقاذ الدولة" وهيبتها، والإيحاء للناس بأن إنقاذ تلك الدولة متعلق ومرتبط جذرياً بإنقاذ حياة الفرد وحقه في حياة كريمة – رغم أن كل الأدلة تشير إلى أن تلك الدولة لم تعمل يوماً في هذا الاتجاه – فإذا كانت هناك أسباب موضوعية لقيام الشعب بانتفاضة يناير ٢٠١١، فربما من أهمها كان الإحساس العام بالإهانة الذى سيطر على قطاع كبير من الـ "شعب". لكن "الكداب نساي". ويضيف الدكتور عمرو الزنط واصفاً حالة الشمولية التي تسيطر فيها الدولة فعلياً على فضاء العمل العام كله: "مع ذلك هناك تحالف، ربما يكون رصيناً، بين "الشعب" والنسخة الميري الوطنية المتطرفة للدولة

وإعلامها، المهدد للشعب دائماً بأخطار الداخل والخارج. فنحن نعيش في مجتمع "قطاع عام"، تم تأميمه في الماضي، ليس فقط من حيث الشركات الرأسمالية، إنما أساساً من حيث الأفكار والسياسة، التى نعيش حتى الآن عملية تأميم أحزابها وتياراتها لكي تخدم "هيبة الدولة"". والنتيجة، كما يقول الدكتور الزنط: "أننا نتعامل مع كيان – وفي النهاية إنسان – مصري "عميل"، ليس بمعنى أنه جاسوس داخلي أو خارجي – رغم الاتهامات المعتادة في هذا الاتجاه والتي تصيب قدراً مذهلاً من المصريين – لكنه متسول نحو الدولة، التي بدورها تتهم الإنسان المستقل فكرياً بأنه عميل، يساعد العدو الداخلي أو الخارجي .. وعندما تقرر الدولة ذلك ينصاع خلفها الجموع: لأن "إذا فاتك الميري فاتمرغ في ترابه". وإن قالت لك الدولة حارب الآخر، فربما يبدو ذلك منطقياً ومقنعاً.

فأنت لا ترى ماذا يرى العالم فيك، لكن الإنسان المصري يعيش جزءاً كبيراً جداً من حياته في محاولة إرضاء للدولة (ومن يشك في ذلك فعليه زيارة أقرب مصلحة حكومية حالاً)". ورغم أن المسار السياسي لمصر لا يبدو واضحاً، فإن هناك شييء واحد واضح هو "أن من ضمن ما يحدث حالياً هو نوع من التطهير المجتمعي، في محاولة للم الشمل والوئام التي تأتي على حساب فصيل عادة ما اعتقد البعض أنه أغلبية في هذا البلد لكنه صار في لحظة منبوذاً... ...والتمسك والتشبث بالمطلق جزء من سياق مجتمعي يعشق هذا المطلق ومن ثم لا يقبل الاختلاف بسهولة، لذلك كان من الطبيعي أن تجد سلعة المطلق سوقاً هائلة ومربحة في المجال العام اللا عقلاني السائد في مصر حالياً، كذلك فإن مثل هذا المجال العنيف فكرياً، والذي لا يقبل النقاش النقدي، يعمل على إزالة الانشقاقات والشروخ

والشد والجذب المقلق داخل المجتمع عن طريق عملية "تطهير".. وهذه عملية مخيفة. يتخيل من خلالها معظم ذلك المجتمع أنه يتخلص من حالة الفوضى والتوتر، من خلال التضحية الدموية بفصيل معين.. دون أن يعالج الأسباب الأساسية في جذر المأساة".[50]

....

ومن أوجه التشابه التي أدهشتني بين إمبريالية الاستعمار الغربي في تعامله مع "الآخر" (الشعوب التي احتل بلادها)، وبين تعامل الوطنيين المتطرفين مع "الآخر" من مواطنيهم (الإخوان المسلمين وحلفائهم) المطرودين من جنة "دولة القانون" إلى حجيم قانون الطوارىء والمحاكمات العسكرية و........ وقبل مطلع القرن العشرين (1898) كتب هاينريش فون ترايشكي،

([50]) عن أخطار تطهير مصر – مقال – د. عمرو الزنط – جريدة المصري اليوم – ٣١/ ٨/ ٢٠١٣.

الخبير الألماني في العلوم السياسية، أن القانون الدولي يصبح "كلاماً فارغاً إذا أردنا أن نطبّق مبادئه أيضاً على الشعوب البربريّة... ... فمن أجل معاقبة قبيلةٍ من الزنوجِ يجب إحراق قراها؛ ولا يمكن إنجاز أيّ شيءٍ من دون أن نصنع أمثولات من هذا النوعِ". والبربري حسب كلود ليفي شتراوس هو "يعتقد أنّ شعباً ما أو إنساناً ما لا ينتمي كلّياً إلى البشرية، وأنّهم يستحقّون معاملة يرفض هو بشكلٍ قاطع أن يطبّقها على نفسه".

والألمان لم يعترِهم أيّ "ضعفٍ" عندما أبادوا شعوب "الهيريروس" في جنوب غرب إفريقيا (ناميبيا الحالية) بين عامي 1904 و1907، مدشّنين بذلك أولى الإبادات الجماعيّة في القرن العشرين، والتي اتُّخذت مع الكثير غيرها نموذجاً ومبشّراً لإبادة اليهود الجماعيّة على يد ألمانيا النازية".

و"الوحوش لا يستحقّون أن تطبّق عليهم أكثر قوانين الإنسانية قداسةً ... ... التمدّن يعني إذن إبادة البرابرة"![51]

وفي بلد مثل مصر يكاد الإعلام فيه يستولي بالكامل على الوجدان والعقل والذاكرة، فلا شيء أيسر من تحويل أي جماعة أو حتى منتسبي تيار فكري إلى "وحوش" و"برابرة"!!.

....

([51]) ذاكرة الغرب المكبوتة وتاريخه المشوّه: من معركة "ترموبيل" إلى اعتداءات 11 أيلول/ سبتمبر – Le Monde Diplomatique - Editions Arabes– لوموند ديبلوماتيك بالعربية – يناير – 2009 – مقال – آلان غريش.

السياق الثاني: سياسي/ خارجي، ففي حقبة ما بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001 شهد العالم واحدة من أضخم موجات "التنميط الفكري" لفكرة الإرهاب عبر منتجات مقرؤءة ومرئية تربط بشكل آليٍّ بين الإرهاب والإسلام، أو بين الإرهاب وتفسيرات بعينها للإسلام، أو بين الإرهاب وبين العرب. وبعض المختارات التي يضمها الكتاب توجه مؤلفوها بوضوح شديد نحو تفنيد هذا الربط عبر تقديم "توثيق مضاد" يربط بين الإرهاب وبين سياقات أخرى تاريخية أو دينية أو معرفية. ويكفي أن أشير هنا إلى فيلم وثائقي بريطاني عنوانه: "الفوضويون"، وقد تناوله موقع هيئة الإذاعة البريطانية في تقرير عنوانه: " فيلم جديد: "الفوضويون" لا الجهاديون هم أول من بدأ الإرهاب قبل عقود"([52])

([52]) فيلم جديد: "الفوضويون" لا الجهاديون هم أول من بدأ الإرهاب قبل عقود – تقرير: ضاحي حسن – بي بي سي – لندن – 12 أكتوبر – 2009. الرابط:

ونقل موقع بي بي سي ما ورد في تحقيق صحفي مطول في الاندبندنت البريطانية عنوانه: "دم وغيظ وتاريخ: أول إرهابيِّي العالم". تحت هذا العنوان نقرأ اليوم في صحيفة الإندبندنت البريطانية. التحقيق يعرض لفيلم وثائقي تلفزيوني جديد يكشف بالوقائع والتفاصيل كيف أن حركة "الفوضويون" التي ظهرت وانتشرت في القرن التاسع عشر هي أول من مارس الإرهاب ونشره في العالم.

يبدأ التحقيق بالنتيجة التي خلص إليها الفيلم، ولربما الرسالة التي أراد إيصالها، إذ يقول: "نحن نفكر بالمدرسة الجهادية كابتكار عصري جديد، لكن هنالك فيلماً جديداً هاماً يكشف كيف كانت الحركة الفوضوية في القرن التاسع عشر على القدر نفسه من العدمية، وعلى القدر نفسه من الفتك والقتل".

---

http://www.bbc.co.uk/arabic/mobile/inthepress/2009/10/091012_dh_pressreview_anarchists_tc2.shtml?page=all

وترفق الصحيفة التحقيق بصورة لمسلحين ينتمون إلى حركة "الشباب" الإسلامية في الصومال، وتحت الصورة تعليق يقول: "عقول خطيرة: تعهد مسلحو الشباب في الصومال مؤخراً بالولاء لأسامة بن لادن". وينطلق كاتب التحقيق بعد ذلك لإجرء مقارنة ذلك مع الإرهاب الذي دعت إليه ومارسته قولاً وفعلاً "المدرسة الفوضوية" قبل أكثر من قرن من الزمن. والكاتب يدخلنا فجأة إلى جو الفيلم من خلال المشهد التالي: لنتصور أن هنالك ثمة مجموعة من المتطرفين ذوي التوجه العنيف يقدمون على قتل قادة العالم الواحد تلو الآخر. "لقد قتلوا الرئيس الأمريكي ورأس الدولة الروسي والرئيس الفرنسي ورأس الدولة الاسترالية ورئيس الوزراء الإسباني". وحتى يكتمل المشهد إثارة، يمضي بنا التقرير في الوصف قائلاً: "تعم الهجمات بالقنابل أرجاء أغنى مدن المعمورة، إذ تدكُّ الانفجارات حي وول ستريت وشبكة قطارات

الأنفاق في لندن ومسرح برشلونة ومقاهي باريس ومنتزهات موسكو". وفي بلاغ للشرطة يصف أحد أفراد مجموعة المفجرين الذين قاموا بكل تلك التفجيرات، نقرأ: "إنه يسير إلى حتفه بشجاعة وبلا أسف". ويمضي في الوصف: "هناك ذعر، فالحكومات تطلق برامج التعذيب والتهجير والإبعاد التي تستهدف الجاليات من المهاجرين. ومع ذلك، يمضي المتطرفون في تحديهم عبر العالم، يعيثون قتلاً وفتكاً أينما حلوا وذهبوا، فهم يقولون إن لديهم ثمة هدفاً واحداً فقط، وعلماً واحداً: إنه التدمير". يعود كاتب التحقيق ليفسر ما جاء من سرد مخيف في السيناريوهات السابقة، وليفاجأنا بقوله: "يبدو الأمر لنا للوهلة الأولى وكأنه جزء من أحداث رواية محمومة تدور حول تنظيم القاعدة، ولربما تم وضعه قبل نحو 30 عاماً مضى. لكن هذا هو بالفعل ما كان قد حدث. إنها قصة من ماضينا. ففي أواخر القرن

التاسع عشر وبداية القرن العشرين، قام المفجرون من أتباع المدرسة الفوضوية بفعل ذلك كله". وفي وصف أولئك "الفوضويين"، يذكرنا هاري كيف كانوا مستعدين دوما لكي يفنوا في سبيل معتقداتهم. "لقد عاشوا في ذات الأماكن التي يعيش فيها الإسلاميون اليوم، مثل حي وايت تشابل شرقي لندن. كما ضربوا الأهداف ذاتها، مثل حي مانهاتن، في صباح يوم مشرق من أيام شهر سبتمبر".

ومن أحداث ومشاهد الواقع في التاريخ البعيد نسبياً والحاضر المعاش، ينقلنا التحقيق مباشرة إلى وقائع الفيلم الوثائقي لجو بولمان، والذي جاء بعنوان: "العدو من الداخل". يظهر في الفيلم شبان إسلاميون يقرأون كلمات الأمس التي كان أتباع حركة "الفوضويون" اليهود يلهجون بها في الماضي، وترد دوماً في كتاباتهم ونصوص محاكماتهم.

يقول التقرير: "في الوقت الذي نرى فيه أن المجتمعات التي يحلمون ببنائها بعد كل تلك القنابل والتفجيرات كانت جد مختلفة، نعلم أيضاً أن غضبهم وغيظهم وتغرُّبهم ووحشتهم وتكتيكاتهم هي تقريبا متطابقة".([53])

....

والمراجعة إزاء الثورة الفرنسية في فرنسا نفسها تعكس أزمة أخرى ليست معرفية ولا سياسية بل أخلاقية، وهذه بأوجه شبه رآها مثقفون فرنسيون بين هجمات الحادي عشر من سبتمبر وإرهاب الثورة الفرنسية!!

([53]) فيلم جديد: "الفوضويون" لا الجهاديون هم أول من بدأ الإرهاب قبل عقود – تقرير: ضاحي حسن – بي بي سي – لندن – 12 أكتوبر – 2009. الرابط:

http://www.bbc.co.uk/arabic/mobile/inthepress/2009/10/091012_dh_pressreview_anarchists_tc2.shtml?page=all

ولا عجب في هذا وإن بدا عجيباً، ف "التنميط" المقصود لصورة الإرهاب، شيء يبعث على القرف. والربط الآلي بينه وبين التشدد الديني كمصدر وحيد مؤشر على فقر معرفي وأخلاقي معاً، وهناك من تعمد تصفية حسابات سياسية وأيديولوجية على حساب الحقيقة. فلم يفكر أحد – حتى سنوات قليلة مضت – في نقل هذا الربط بين "الثورة الفرنسية" و"الإرهاب"، ولو حتى بوصفه "وجهة نظر"، وربما كان كاتب هذه السطور أحد القليلين الذين حاولوا ذلك إنجاز ذلك مبكراً. وليست مصادفة أن يكون من يرفع في الحالتين (المصرية والفرنسية) راية "تقديس" الثورة الفرنسية، وتالياً "تقديس أفعال الدولة"، وصولاً إلى تبرير الإرهاب، هو اليسار، وهو أحد مصادر التأزم الذي تشهده مصر بعد الثالث من يوليو 2013. ومن المؤلفات الفرنسية التي عالجت هذه الإشكالية كتاب: "في الدفاع عن الارهاب" وهو ما تناولته الجارديان

تحت عنوان: "الحرية أو الموت في الثورة الفرنسية"، وحسب الجارديان: "صيغت كلمتا "إرهاب" و"إرهابيون" في فجر الثورة الفرنسية لوصف "الرجال الدمويين" الذين أسسوا ومارسوا ميكانيزمات القمع المخيف: المحكمة الثورية، وقانونها للمشتبه بهم، والمقصلة، بغية تحقيق هدف قهر الاستبداد وصيانة الحرية".([54]) وتضيف الجارديان أن صوفي وانيش في دراستها المثيرة عن العنف الثوري كان لديها أشياء جديدة تقولها عن الفرق بين إرهابيي اليوم وأسلافهم الذين يحملون الاسم نفسه من القرن 18. كما أنها تقدم بنية جديدة واضحة من العواطف التي قادت الثوريين الفرنسيين إلى الإرهاب. وحول الرابطة المزعومة بين الثورة الفرنسية وإرهابيي 11 سبتمبر. وقد

([54]) كتاب "في الدفاع عن الإرهاب: الحرية أو الموت في الثورة الفرنسية" – ترجمة: عباس المفرجي – نقلاً عن الجارديان البريطانية – جريدة المدى العراقية – 8/ 9/ 2012.

كانت وانيش واضحة: "الارهاب الثوري ليس إرهاباً". وإيجاد تماثل أخلاقي بين الثورة وايلول 2001 هو "هراء تاريخي وفلسفي". وهي في حكمها النهائي، تؤكد ذلك بالقول إن "العنف الذي أُرتكب في 11 ايلول 2001 لم يكن هدفه لا المساواة ولا الحرية". وطبقاً لوانيش، هناك تشابه جزئي بين 1793 و2001، في الطريقة التي استجاب لها الثوريون الفرنسيون، والامريكيون لـ "الإحساس بالخوف" بالبحث عن مقاومة مشتركة للعدو من خلال الغضب، الشجاعة والعدالة. لكن هنا ينتهي التشابه الجزئي لأن الأمريكيين، برغم كل ما يقولونه، لا يعيشون في عصر التأسيس، ونحن لم ننته من ملاحظة أشكال الفزع التي أثارتها الاستجابة الامريكية، فزع العنف الذي هو غير تأسيسي بل تنظيمي، وحالياً هو وقائي أيضاً".([55])

([55]) كتاب "في الدفاع عن الإرهاب: الحرية أو الموت في الثورة الفرنسية" – ترجمة: عباس المفرجي – نقلاً عن الجارديان

الثوريون الفرنسيون، على العكس، كانوا – حسب دراسة وانيش – يعيشون في عصر التأسيس (تأسيس قيم سياسية جديدة)، مُمَثلة في "إعلان حقوق الإنسان والمواطن" العالمي، الذي، كما تناقش وانيش، لا يمكن أن يُصان من دون بطولة في وجه التدنيس. بسببها، كان ثمن الإرهاب "صفقة مقدّسة"، اقتضى فيها تأسيس القيم موت البشر، وبها تورطّت الروح والجسد. وكان يمكن لأي إمرئ أن يهلك من الخوف أو يكون منهكا بالاشمئزاز. هذا، في رأيي، هو الثمن المنسي للثورة، الثمن المدفون للإرهاب، ثمن هو أخلاقي سياسي على نحو لا يمكن فصله بالمرة".([56])

.... وفي موقف أرى أن هناك مشهد توجد ضرورة قصوى للوقوف أمامه لصلته الوثيقة بما يراه

البريطانية – جريدة المدى العراقية – 8/ 9/ 2012.

([56]) كتاب "في الدفاع عن الإرهاب: الحرية أو الموت في الثورة الفرنسية" – ترجمة: عباس المفرجي – نقلاً عن الجارديان البريطانية – جريدة المدى العراقية – 8/ 9/ 2012.

البعض من حسني النية في بلادنا العربية المنكوبة بـ "عشق المستبدين" بطولة أبداها الديكتاتور العراقي صدام حسين عند إعدامه، ذلك أنه واجه هذه الإعدام دون وجل أو ندم، وهو يمتحون ذلك حتى اليوم دون أن يصفوا موقفه: هل هو موقف شخص شجاع أم شخص متبلد الحس؟ هذا الموقف الذي أعنيه ترصد فيه وانيش مشاعر ثلاثة من سفاحي الثورة الفرنسية. فالقديس سان جوست لم يطلب المغفرة بل أشار إلى نسخة من إعلان الحقوق، معلقة على جدار الغرفة التي قضى فيها الليلة الأخيرة قبل إعدامه، وقال: "في آخر الأمر، أنا من صنع هذا!"، أمّا روبسبير فلا توجد وسيلة لمعرفة ما إذا كان نادماً أو كان يعتقد أن المغامرة أوفت بدينها كاملاً. فهو في النهاية لم يعد قادراً على النطق لأن نصف فكّه أصيب بطلق ناري، وحين قام بايماءة إلى قلم، لم يعطه أحد.... و"كانت التوبة تبدو

له بعيدة الاحتمال". ووحده دانتون أعلن ندمه.[57] وترى الجارديان أن الأهم في هذه المعركة الفكرية أن دراسة وانيش "تسهم في إعادة توكيد قبضة التأريخ الرسمي لليسار على الثورة". وفي هذه القصة، فإن المؤرخ فرانسوا فوريه هو العدو الرئيس، بسبب إعلانه الحاد عشية الذكرى المئوية الثانية في عام 1989: "الثورة الفرنسية انتهت!" و"ورثة فوريه يسخرون من التركيز على الطموحات الدستورية الليبرالية لثورة 1789، بدلاً من التركيز على الأيام المظلمة للارهاب، التي لعبت دوراً في تأسيس ديمقراطيتنا الغربية".[58]

---

[57] كتاب "في الدفاع عن الإرهاب: الحرية أو الموت في الثورة الفرنسية" – ترجمة: عباس المفرجي – نقلاً عن الجارديان البريطانية – جريدة المدى العراقية – 8/ 9/ 2012 – بتصرف.

[58] كتاب "في الدفاع عن الإرهاب: الحرية أو الموت في الثورة الفرنسية" – ترجمة: عباس المفرجي – نقلاً عن الجارديان البريطانية – جريدة المدى العراقية – 8/ 9/ 2012.

وها هو اليسار يلعب الدور نفسه في مصر ما بعد 30 يونيو 2013.

....

السياق الثالث: معرفي خالص يتمثل في أن العالم العربي يشهد منذ عقود صراعاً حاداً يعتبره البعض "صراع هوية" فيما هو أكثر تركيباً من ذلك. وإلى جانب هذا الفهم الذي أراه مفتقراً للدقة، لهذا الصراع المزمن، هناك – من الناحية المعرفية – مشكلة تتصل بما يمكن أن نسميه "صورة العلمانية" (وبخاصة الثورة الفرنسية) في الكتابات العربية المعاصرة فهي صورة صنعتها، في المقام الأول، أدبيات يزعم منتجوها أنها أعمال "علمية" فيما هي في الحقيقة كتابات "تبشيرية" أغفل أصحابها عمداً أن العلمانية عملة ذات وجهين، وأن وجهها المظلم قد يكون أكثر جدارة لخطورته – من وجهها المشرق – بأن نقف أمامه طويلاً.

ويلخص الدكتور عمر الحضرمي تاريخ مفهوم الإرهاب قائلاً: "وحتى نكون في دائرة الحق والتأصيل التاريخي الصحيح، فإننا نقول إن كثيراً من الباحثين قد أعادوا جذور الإرهاب، على صورته التي نرى، إلى عهد "رعب اليعاقبة" الذي ظهر في فرنسا بُعيد قيام الثورة الفرنسية في 1789/7/14. ومن هنا ندرك أن الإرهاب كأداة في الصراع بين أطراف الاستقواء وأطراف الضعف، ليس أمراً جديداً في تاريخ البشرية. إلا أنه من الثابت أن الغرب منبع الإرهاب".([59]) وفي "قاموس الأكاديمية الفرنسية ظهر اصطلاح Terrorist لأوّل مرّة وذلك عام 1892. ومع تحوّل الإرهاب إلى مؤسسة فقد جرى وصف "عهد الرعب" كسياسة معلنة لقادة الثورة الفرنسية. وأكثر من ذلك فقد جرى تكييفه قانونياً

([59]) معظم الإرهاب.. صناعة غربية! – الدكتور عمر الحضرمي – مقال – جريدة الرأي الأردنية – 14/ 12/ 2012.

اعتباراً من 1793/8/10 من خلال حدثين رسميين: أولهما، مرسوم "حق الدولة في مداهمة المنازل" الذي زُجّ، بموجبه، بثلاثة آلاف مشبوه بمعاداتهم للثورة في السجون، ثم نفذ حكم الإعدام بهم دون محاكمة. وثانيهما ما صدر عن المؤتمر الوطني الذي عقد في باريس في منتصف عام 1793، حيث قال روبسبير: "أيها المشرعون ضعوا الرعب على جدول الأعمال".([60])

.... وأدبيات "الوجه الآخر" على كثرتها وأهميتها في النتاج الفكري الغربي المعاصر تكون أن خارج دائرة اهتمام العاملين بالترجمة إلى العربية – أفراداً ومؤسسات – ومن أمثلتها المهمة كتاب "التاريخ الأسود للثورة الفرنسية: صدمة بقيت آثارها فاعلة

([60]) معظم الإرهاب.. صناعة غربية! – الدكتور عمر الحضرمي – مقال – جريدة الرأي الأردنية – 14/ 12/ 2012.

على مدى عدة أجيال"، والكتاب أصدرته دار سيرف للنشر في العاصمة الفرنسية باريس لرونو اسكاند. والمؤلف ينتهي إلى أنه إذا كان من الصحيح أنها رفعت شعارات الحرية والمساواة والإخاء وأكدت مسألة حقوق الإنسان والمواطنة، فإنها كما يؤكد الكتاب، عرفت أشكالاً عديدة من الاضطهاد التي ليس أقلها الاضطهاد الديني والرعب باسم القانون وتخريب قسم مهم من التراث الوطني وعلى رأسه كمية عامة من الأعمال الفنية، وهذا ما يطلق عليه أحد المساهمين في هذا الكتاب، هو البروفيسور الكسندر غادي، الأستاذ في جامعة سوربون، تسمية "التخريب الثوري"، حيث يؤكد أنه ليست هناك كنيسة أو قصر أو مدينة في فرنسا لا تحمل آثار مثل هذا التخريب.([61])

([61]) كتاب يتطرق الى التاريخ الأسود للثورة الفرنسية – البيان الإماراتية – 6 يوليو 2008.

الكتاب: التاريخ الأسود للثورة الفرنسية

تأليف: رونو اسكاند وآخرون

وهذه الصفحة بالتحديد من تاريخ الثورة الفرنسية تشكل "فضيحة" بالمعنى الحرفي للكلمة للتنويريين العرب الذين طالما اعتبروا هذه الثورة نقطة تحول تاريخية تأسس عليها كل ميراث البشرية المعاصر في مجال حرية التعبير والإبداع، وهم اعتبروا – بجهل فاضح – أن كلما سبقها وكل من عاداها فيما تلاها هو – بالضرورة – ظلامي معدٍ للفن والفكر و...... ونعود إلى الأكاديمي الفرنسي البروفيسور الكسندر غادي، الأستاذ في جامعة سوربون، وهو من صك تعبير "التخريب الثوري"، فنجد أنه يؤكد أن "أعمال

الناشر: سيرف . باريس 2008

الصفحات: 878 صفحة

القطع: المتوسط

Le livre noir de la révolution française

Renaud Escande et

siraP – freC 8002

P.878

التخريب استهدفت بشكل خاص كل ما كان يرمز للعهد الملكي الذي قوّضت الثورة أركانه. هكذا أُطيح بجميع التماثيل باستثناء تمثال واحد للويس الرابع عشر، المعروف بلقب الملك – الشمس، حيث نجا ذلك التمثال بأعجوبة وهو موجود الآن في متحف "كارنافاليه". وما عداه لم يبق أي تمثال في الساحات الملكية، إذ جرت الإطاحة بها وتحطيمها ونشر قطعها وتذويبها".([62])

.... ورغم أنني ممن كانوا يعتبرون دائماً أن كل دعوات هدم التماثيل أو تغطية الآثار الفرعونية أو غير الفرعونية دعوات لا تستند إلى أسباب فقهية وجهية بقدر ما كانت تعبيراً عن منطق "تطهيري" تـُنتحَل لتبريره حجج دينية مرجوحة، إلا أنني أتساءل في ضوء هذه الحقائق في تاريخ الثورة الفرنسية: هل نحن بإزاء

([62]) كتاب يتطرق الى التاريخ الأسود للثورة الفرنسية – البيان الإماراتية – 6 يوليو 2008 – مصدر سبق ذكره.

ظاهرتين متطابقتين إحدهما ذات خطاب علماني والأخرى ذات خطاب ديني، وهما في الحقيقة تعبير عن أن الطرفين – على الأرجح – يفتقران إلى السواء النفسي!!

........ونعود إلى تقرير "البيان الإماراتية" عن كتاب "التاريخ الأسود للثورة الفرنسية" الذي يرصد أن من المهم الإشارة في هذا السياق إلى أن مؤرخاً فرنسياً كبيراً جعل الثورة الفرنسية موضع اهتمامه المركزي وموضوع مؤلفاته هو فرانسوا فوريه "كان قد حاول نزع هالة التعظيم عن تلك الثورة". لكن هذا الكتاب الجديد "الكتاب الأسود" هجوم مباشر وبالصميم. ويفتتح بيير شونو، المؤرخ والأستاذ لسنوات طويلة في جامعة سوربون، عملية "تهديم" الرؤية الأسطورية الثورية التي أحاطت بالثورة الفرنسية الكبرى. وكان قد ساهم في نسجها عدد من المؤرخين "اليساريين". إنه يبحث في الكيفية التي قامت بها السلطات الثورية بمصادرة

أملاك الكنيسة الكاثوليكية. وينقل عن أحد رموز تلك الثورة (ميرابو)، قوله إنه ما تقرره الجمعية التأسيسية الثورية – لا تمكن معارضته بـ "أي حاجز أو أي قانون طبيعي أو أية قاعدة دستورية".[63] وهذه "الروح الجذرية المتطرفة المتألهة" تكاد أن تكون كل ما استفاده الوطنيون المتطرفون المصريون الذين يسيطر عليهم منذ الثالث من يوليو 2013 نزق ثوري مراهق جناحاه: جهل متبجح، وروح انتقامية تريد اجتثاث كل ما لا تريد أن تراه على شاشة الإدراك، ولدى هؤلاء إحساس بأنهم أصحاب حق في الوصاية المطلقة على الناس وعلى عالم الأفكار أكثر جموحاً بكثير مما لدى المتطرفين من "إسلاميي السلطة"، والمرض واحد!.

([63]) كتاب يتطرق الى التاريخ الأسود للثورة الفرنسية – البيان الإماراتية – 6 يوليو 2008 – مصدر سبق ذكره.

ولا يتردد بيير شونو، المعروف عنه أنه مؤرخ ذو نزعة محافظة، في وصف النظام الذي عرفته فرنسا أثناء فترة حكم "الجمعية التأسيسية" الثورية بأنه كان نظاماً استبدادياً نقرأ: "إن الثورة وبعدها الجمهورية الثالثة والجمهورية الرابعة لم تأخذ كلها على محمل الجد ميثاق حقوق الإنسان".([64])

([64]) كتاب يتطرق الى التاريخ الأسود للثورة الفرنسية – البيان الإماراتية – 6 يوليو 2008 – مصدر سبق ذكره.

والإشارة إلى مدى احترام الجمهورية لإعلان حقوق الإنسان في "الجمهورية الفرنسية الثالثة" شديد الأهمية في سياق أي قراءة عربية لتاريخ الثورة الفرنسية، أولاً: لأنها الجمهورية التي تم في عهدها (1905) الفصل التام بين الدين والشأن العام كله، وثانياً: لأنها توصف في كثير من الأدبيات التاريخية بـ "الجمهورية الماسونية". حيث كان "المحفل الماسوني" الفرنسي يمسك "علناً" بخيوط صناعة القرار فيها.

وحسب تقرير "البيان الإماراتية" فإن مثل هذه النقد الشديد تكرر وبخاصة في القسم الأول من الكتاب الذي يخص "الوقائع"، وانحرافات بعض رموز الثورة الفرنسية التي كانت في غاية العنف. وهنا يأتي ذكر "مأساة فاندي (فنديبه)" التي يصفها الكتاب بأنها "مقبرة وطنية" وأنه تقرَّر إبادة سكانها جميعاً. بل يتم تأكيد أن "هذه المنطقة الفرنسية فقدت على الأقل 117000 شخص من أصل الـ 815000 نسمة الذين كانوا يشكّلون العدد الإجمالي لسكانها. كان ذلك بمنزلة "حرب إبادة" ربّما قلّدها فيما بعد بول بوت وغيره من مرتكبي المجازر، في مراحل لاحقة، حسبما يشير بعض المساهمين في هذا الكتاب".[65]

---

[65] كتاب يتطرق الى التاريخ الأسود للثورة الفرنسية – البيان الإماراتية – 6 يوليو 2008 – بتصرف يسير – مصدر سبق ذكره.

وهذا الربط بين النموذج الذي "تبلور" للمرة الأولى في حقبة الإرهاب من تاريخ الثورة الفرنسية هو ما يحرص التنويريون العرب على إخفائه عبر تجاهله وتجاهل أدبياته، وهو تصور يكتسب كل يوم مزيداً من الأنصار في أوساط البحث العلمي الغربية، لكنه الغرض!

..........القسم الثاني من هذا الكتاب مكرّس لما جرى جمعه تحت عنوان عريض هو "العبقرية". ويقوم على أساس أن الثورة الفرنسية الكبرى أثارت منذ البداية "صدمة" بقيت آثارها فاعلة على مدى عدة أجيال..... وذلك باعتبارها نقطة "مفصلية" يختلف ما بعدها عما كان بعدها. أمّا أكبر الذين دفعوا ثمن ذلك العنف الكنيسة الكاثوليكية نفسها، ذلك أن الثورة لم توجّه غضبها ضد النظام الملكي وإنما أيضا ضد المؤسسات الدينية. وتدلّ الأرقام المقدّمة أن ضحايا الكنيسة بين رجال دين وراهبات بلغ ثمانية آلاف شخص. هذا

بالإضافة إلى عدة آلاف من "اللاييك"، أي المتدينين من غير رجال الكنيسة آنذاك. وإذا كان ميثاق حقوق الإنسان والمواطن هو من ثمرات تلك الثورة... ... فإن فترة "الرعب" التي أعقبت الثورة مباشرة تقريبا تشكل "صفحة سوداء".([66])

....

ورغم الأدبيات المشار إليها في هذا التمهيد، فقد دأب القسم الأكبر من "المبشرين بالعلمانية" على الإحالة على الثورة الفرنسية بوصفها اللحظة المؤسسة لرؤيتهم، وهم نجحوا في جعل شعارها الثلاثي "إخاء... حرية... مساواة" أكثر رموزها شهرة، بينما ما كان يستحق هذه الشهرة في الحقيقة رمزان آخران: "المحاكم الثورية" و"المقصلة"!.

أما المحاكم الثورية فتولت محاكمة رموز العهد الملكي

([66]) كتاب يتطرق الى التاريخ الأسود للثورة الفرنسية – البيان الإماراتية – 6 يوليو 2008 – بتصرف واختصار – مصدر سبق ذكره.

في السنوات الأولى للثورة التي دامت عشر سنوات، ومرت عبر ثلاث مراحل أساسية، المرحلة الأولى (يوليو 1789 – أغسطس 1792) وشهدت تأسيس الجمعية الوطنية واحتلال سجن الباستيل، وإصدار بيان حقوق الإنسان ووضع أول دستور للبلاد. المرحلة الثانية (اغسطس 1792 – يوليو 1794)، فترة بداية النظام الجمهوري وتصاعد التيار الثوري حيث تم إعدام الملك وإقامة نظام جمهوري متشدد. والمرحلة الثالثة، (يوليو 1794 – نوفمبر 1799)، فترة تراجع التيار الثوري وعودة البورجوازية المعتدلة التي سيطرت على الحكم ووضعت دستوراً جديداً وتحالفت مع الجيش، كما شجعت الضابط نابليون بونابابرت للقيام بانقلاب عسكري وضع حداً للثورة وأقام نظاماً ديكتاتورياً توسعياً. وكان إلغاء محاكم الثورة يقع فى المرحلة الثانية من الثورة الفرنسية حيث ألغى المؤتمر الوطنى الملكية وأعلن الجمهورية بإجماع الأصوات في 21 سبتمبر

1792، وفي 16 ديسمبر وافق المؤتمر على توقيع عقوبة الإعدام على كل من يحاول هدم وحدة الجمهورية الفرنسية أو أن يسلخ أجزاء من كيانها. المؤتمر الوطنى كان يتكون من تيارين هما تجمع "الجيروند" التجمع اليميني وكان يمثل الطبقة البرجوازية العليا، من ملاك ورجال الأعمال كانوا دائما يتحدثون عن الشرعية وسيادة القانون والحرية الإقتصادية، أما تجمع الجبل وزعماؤهم روبسبير ومارا ودانتون فكانوا يمثلون الطبقة البرجوازية المتوسطة، وكانوا أكثر تعبيراً عن الطبقات الشعبية وكانوا يرون أن الحرية إذا أسئ استخدامها قد تصبح ستاراً للاستغلال، بل مبرراً لخيانة الوطن. وكانوا يتحدثون عن إنقاذ الثورة والجمهورية، ولو بمصادرة حرية أعداء الحرية وبين الكتلتين كان هناك كتلة ثالثة من الوسط تعرف باسم "السهل" كانت تتكون من الجمهوريين الثوريين. ورغم معارضة الجيروند أنشأ "المؤتمر الوطني" في 10 مارس 1973، "محكمة الثورة" وهي محكمة من درجة واحدة، و كان

اختصاص المحكمة: "النظر في كل أعمال الثورة المضادة وكل عدوان على الحرية والمساواة ووحدة الجمهورية وتكاملها، والسهر على الأمن الداخلي والخارجي للدولة، والكشف عن كل المؤمرات التي تسعى لإعادة النظام الملكي"، واحتفظ المؤتمر لنفسه بحق تعيين القضاة والمحلفين، وحق الاتهام على الخصوص، وقال دانتون: "لنفعل ما لم تفعله الجمعية التشريعية، ولنحكم بالإرهاب". وباشر الجبليون حكمهم بالبطش والإرهاب، ولمّا عارضهم المعتدلون طردوهم من المؤتمر الوطني وسجنوهم ونكّلوا بهم. ولمّا حاول أنصار المعتدليين في مناطق ليون ومرسيليا وبوردو وغيرها أن يثوروا على حكومة الإرهاب، أخضع الجيش تلك الثورة بمنتهى القسوة، وقضت محاكم الثورة بالإعدام على عشرين ألفًا تقريبًا من النبلاء ورجال الدين والزعماء وزعماء الثورة السابقين والعلماء والرجال والنساء البارزين بتهمة معاداة الثورة، وعوقبت مدن

فرنسية عقوبات جماعية لإظهارها التململ من الثوار الديكتاتوريين. وكان بطل عهد الإرهاب بامتياز "ماكسمليان روبسبير"، وانشئت لجان المراقبة الثورية في مارس 1793، وكلفت بإعداد قوائم المشبوهين وتوجيه التهم إليهم، وأنشئت "لجنة الانقاذ الوطني" التي كانت مداولاتها سرية، وكان على السلطة التنفيذية تنفيذ كل قراراتها بشكل عاجل، ووصف الجيروند هذة اللجنة بالديكتاتورية، فرد مارا قائلاً: "إنما بالعنف نحقق الحرية، وقد آن الأوان لننظم طغيان الحرية لنسحق طغيان الملوك". وعند الصدام بين حزب الجبل والجيروند، قال مارا من حزب الجبل الذين يتولون الحكم: "أعتقد أني كنت أول كاتب سياسي، وربما الوحيد في فرنسا منذ الثورة، الذي اقترح إقامة حكم عسكرى أو ديكتاتورية أو حكومة ثلاثية بوصفها الطريقة الوحيدة لسحق الخونة والمتآمرين". وكانت محكمة الثورة تعمل بضغط من الشارع

الباريسي، وأخيرًا خشي أعضاء المؤتمر الوطني على أنفسهم من بطش روبسبير وقرروا أن يتخلصوا منه، فدبروا انقلابًا ضده وقبضوا عليه وقطعوا رأسه في 28 يوليو 1794. وفي 12 نوفمبر 1794 أغلق "نادي اليعاقبة" أكبر طرف فى حزب الجبل وبدأت أحكام الإعدام تتضاءل وعاد 75 من أعضاء الجيروند من السجون إلى مقاعدهم بالمؤتمر. وفي 15 ديسمبر 1794 تم إنهاء محاكم الثورة التى لم تطح فقط برموز العهد الملكى بل بعلماء وسياسيين ممن وقفوا ضد إرهاب الديكتاتورية.([67])

([67]) **أهوال محاكم الثورة الفرنسية .. في ذكرى إلغائها – شيماء فؤاد – موقع محيط الإخباري – 15 ديسمبر 2012 – الرابط:**

أما المقصلة فهي حسب – هندرك فيرنر – وسيلة للإعدام ارتبطت تاريخياً بالثورة الفرنسية تصوَّر مخترعها جوزيف إغناك جيلوتين أنها توفر موتاً يتصف بأنه "سريع وغير مؤلم" وقد اهتم بمسألة ما إذا كان الإعدام بالمقصلة يمكن أن يُعدّ خطوة نحو الأمام. وهي تحولت الى "نص حضاري تاريخي"، يحمل عنواناً استفزازياً "الموت المستنير". وعندما أقدم الطبيب والسياسي الفرنسي جوزف – أجناك جيلوتين (1738 – 1814) متوهماً على تسمية آلة قطع

---

http://moheet.com/News/NewDetails/531011/1/%D8%A3%D9%87%D9%88%D8%A7%D9%84-%D9%85%D8%AD%D8%A7%D9%83%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%AB%D9%88%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B1%D9%86%D8%B3%D9%8A%D8%A9-..-%D9%81%D9%8A-%D8%B0%D9%83%D8%B1%D9%89-%D8%A5%D9%84%D8%BA%D8%A7%D8%A6%D9%87%D8%A7.html

الأعناق التي ابتدعها فيما بعد عشية قيام الثورة الفرنسية باسم الإنسانية وحقوق المواطنة واصفاً إياها شكلاً من أشكال الإعدام (المستنير)، يومذاك قلما أصغى له أحدٌ من الناس. وتوفر المقصلة موتاً من خلال "شفرة تسقط من شاهق" هكذا يقول الشِعار الشعري اللطيف، في الإعلان عن الجيلوتين، الآلة التي تحب الناس، كما يُقال!!!.([68])

ويضيف هندرك فيرنر أنه في أكتوبر سنة **1789** اقترح الرجل المتضلع بعلم تشريح الإنسان، إدخال آلة ميكانيكية لقطع الأعناق لتحل محل الأنواع الأخرى من آلات تنفيذ الإعدام التي وصفها بالوحشية والفاضحة والمنتهكة لحقوق المواطن والمكروهة أبداً. وقد لقي

([68]) المقصلة... هل كانت خطوة إلى الأمام من أجل البشرية؟! – مقال – جريدة الصباح الجديد العراقية – 22/ 5/ 2010 – بقلم: هندرك فيرنر – ترجمة: قاسم مطر التميمي.

جيلوتين دعماً من تجربة مثبتةٍ: شارل هنري سانزون باعتباره جلاّد باريس ألمّ بكل المسائل التطبيقية للجلادين، فوصف للسياسيين الأضرار التي تنجم من استخدام السيف عند الجلد: لم يكن الأمر جيداً أبداً. وحتى الجلادون الأقوياء سرعان ما يعتريهم التعب بعد إعداماتٍ كثيرة. وسيف الجلاّد يبلى بعد تنفيذ عدد من أحكام الإعدام؛ وتبقى من ذلك عواقب خطرة، هي أنّ الضربة التي تؤدي فيما بعد إلى موت المجرمين تجري على نحوٍ غير مرغوب.([69])

.......وبرغم هذه المرافعة العنيفة والمميزة لتبدل النماذج في التنفيذ فقد كلفت الجمعية الوطنية الطبيب الشخصي الملكي كتابة تقرير ومنحته مهلة حتى آذار (مارس) سنة 1792. ثمّ عرض أنطوني لويس مسودة المشروع الذي جعل المقصلة مثالاً يُحتذى. نموذج لكل الآلات الميكانيكية المُستخدمة لتنفيذ الإعدام في

([69]) المصدر السابق.

أواخر القرن الثالث عشر. "آلة لم تفشل قط" مثل هذه كان من السهل وضعها في الطلب الذي أُقرّ في 20/ مارس 1792. بعد لويس أُطلق على هذه الآلة اسم "لويسيون" أو (لويسته)؛ غير أنّ أسمها قد شاع في الصحافة وعلى ألسنة الناس فأُطلق عليها (جيلوتين) كما أُطلقت عليها أسماء أخرى مثل: (سكين الحلاقة الوطنية) و(الناجزة السريعة).([70]) أما المسيو جيلوتين فلم يشعر بالرضى برغم الشهرة الوطنية الواسعة التي أحرزها: فقد بدا له أنّ آلة الموت في شكلها المُقترح آنذاك لا تُقارن بتلك التي أوعز بها. ومن جانبٍ آخر فقد كان عليه أن يُثبت أن اقتراحه قد أُتيح له التطبيق من خلال الإعدامات الجماعية التي قام بها اليعاقبة.

([70]) المقصلة... هل كانت خطوة إلى الأمام من أجل البشرية؟! – مقال – جريدة الصباح الجديد العراقية – 22/ 5/ 2010 – بقلم: هندرك فيرنر – ترجمة: قاسم مطر التميمي.

وطبقاً لمبدئها في التخويف أقدمت السلطة على أعمال وحشية وقتل جماعي – لأسبابٍ واهية – فتمكنت بذلك من القضاء السريع والجذري على الطبقة الأرستقراطية. وبفضل المقصلة أصبح الشعار "يجب أن تسود الفضيلة من خلال الخوف" تلخيصاً لمرحلة من تاريخ الثورة، فيما صارت المقصلة شعاراً رسمياً لظلم منظم ورمزاً لمرحلة، وبقي إشعاع آلة الموت هذه يُرافق مراحل الثورة الفرنسية.([71]).

وحسب الأرقام، نفذت الثورة الفرنسية أحكاماً بالإعدام العلني، قطعاً للرؤوس بالمقصلة، ما بين 2600 وثلاثة آلاف شخص في باريس وحدها بين مارس 1793 وأغسطس 1794.

([71]) المقصلة... هل كانت خطوة إلى الأمام من أجل البشرية؟! – مقال – جريدة الصباح الجديد العراقية – 22/ 5/ 2010 – بقلم: هندرك فيرنر – ترجمة: قاسم مطر التميمي.

وبلغ عدد الذين فصلت رؤوسهم عن أجسادهم بمجموع التراب الفرنسي حوالي 17 ألف شخص، بمعدل خمسة رؤوس كل يوم في العاصمة، وهو معدل نسبي لأن بعض الأيام عرفت أرقاماً مرعبة، مثل يوم 7 يوليو 1794 الذي قطعت فيه رؤوس 68 شخصاً قبيل سقوط الزعيم السياسي روبسبيير. فصارت المقصلة هي رمز الثورة الفرنسية التي باشرت الإصلاح بالقطع الدموي مع الماضي.([72])

([72]) **الرجل الذي ظن نفسه نابليون – عرض/ الحسن سرات – موقع الجزيرة نت – 2012/1/22 – الرابط:**

http://www.aljazeera.net/books/pages/fdba4964-4b05-48aa-a5e5-1bfb3b058817

كتاب يكشف الوجه الآخر للثورة الفرنسية:

إبادة جماعية فرنسية

الكتاب: إبادة جماعية فرنسية

المؤلف: رينالد سيشر

ترجمة (إلى الإنجليزية): جورج هولوك

الناشر: مطبعة جامعة نوتردام

تاريخ النشر: 2003.

الحجم: 305 صفحة

مراجعة: بيتر ماكفي – جامعة ميلبورن.

بحلول 1793 كانت فرنسا الثورية في حالة حرب مع النمسا، بروسيا، وإسبانيا، وكانت بريطانيا تَعدُّ حصاراً بحرياً. الجمعية الوطنية رَدّتْ على هذه الحالة العسكريةِ اليائسةِ بالأَمْرِ بفرض ضريبة تجنيد 300,000 مجنّدٍ في غربِ فرنسا هذه الضّريبة كَانَت الذّريعةَ للتّمرّدِ والحرب الأهليةِ المُسَلَّحةِ الهائلة التي عرفت باسم هذه المنطقة فاندي (فنديية). العصيان المسلح تَسببَّ في خسائرِ بشرية فظيعةِ حتى هزم في 1794 تاركاً ندوباً دائمة في المجتمع والسياسة الفرنسيين.

وما زال المؤرخون منقسمين، المدرسة التقليدية من مؤرخي الجمهورية ترى القمع عملاً مؤسفاً، لكن لا مفر منه لمواجهة عملٍ عسكريٍّ شكّل "طعنة في الظهر" في لحظة كانت الثورة فيها تمر بأخطر أزمة، خلال السنوات العشرين الماضية أصبح القمع يصور بوصفه عملاً شريراً أكثر من ذي قبل.([73])

([73]) شكلت قضية الصورة النهائية للثورة الفرنسية حتى في الثقافة الفرنسية نفسها قضية خلافية – تقريباً – منذ الذكرى المئتين للثورة (1989) ونشرت منذ ذلك الحين كتابات نقدية كثيرة كانت أكثر موضوعية في طرح الوجه المظلم لها من معظم الكتابات العربية التي غلبت عليها نزعة تقديسية كان أصحابها من دراويش العلمانية العرب "ملكيين أكثر من الملك". وحسب مؤرخ الفكر الكبير الأستاذ إبراهيم العريس فإن المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي كان ينتمي الى مدرسة ترى ان كتابة التاريخ انما هي وصف للأحداث الكبرى وبثّ لبعض الآراء من حولها. وهي مدرسة قديمة عريقة لها مؤيدوها وأنصارها بالطبع. لكن القرن العشرين، بخاصة، أتى يقول إن تاريخها لم يعد كافياً، وأن الكتابة الحقيقية للتاريخ، شيء آخر تماماً. ويقيناً ان المؤرخ الفرنسي جول ميشليه كان من شأنه أن يقف الموقف نفسه الذي عبّر عنه الرافعي، حين احتُفل قبل عقدين ونصف العقد تقريباً من الآن، في فرنسا بالذكرى

المئوية الثانية للثورة الفرنسية، وعاد الحديث للمناسبة، عن "ضرورة كتابة تاريخ جديد للثورة". ذلك ان مؤرخاً من طينة ميشليه كان سيدهشه مثل هذا الحديث، إذ هو الآخر كان يرى أنه كتب تاريخ الثورة الفرنسية منذ زمن بعيد جداً... وكتبه في "شكل نهائي".

ويضيف إبراهيم العريس أن الحال أن المسألة تكمن ها هنا: في الفارق بين من يرى أن التاريخ يمكن أن يكتب في شكل نهائي، ومن يرى أن لا نهاية لكتابة التاريخ. ومع هذا، ثمة فكرة راسخة في فرنسا، وفي الأوساط الشعبية بخاصة، تقول ان ميشليه هو، عن حق، مؤرخ الثورة الفرنسية، وأن كتابه الضخم حولها هو المرجع الأساس الصالح لـ "معرفة ما الذي حدث خلال تلك السنوات الرهيبة". كتب جول ميشليه "موسوعته" حول تاريخ الثورة الفرنسية، خلال الفترة الفاصلة بين عامي 1847 و1853، أي خلال تلك السنوات التي توقف فيها عن مواصلة كتابة مؤلفه الضخم، الذي لا يزال مرجعاً حتى اليوم عن "تاريخ فرنسا". فالذي حدث هو أن ميشليه الذي كان، عهدذاك، مديراً للأرشيف التاريخي القومي الفرنسي، وأستاذاً للتاريخ في الـ "كوليج دي فرانس"، كان بدأ يخوض معترك السياسة، في خط جمهوري واضح، وهو إذ أراد من كتابة تاريخ فرنسا أن تساعده، وتساعد قراءه، على فهم الحاضر، أدرك ذات لحظة أن ليس في أمكانه أن يفهم أي شيء من تاريخ فرنسا في زمنه، بل بالأحرى: ليس في إمكانه أن يفهم ظاهرة الملكية المطلقة منذ زمن لويس الحادي عشر، إن هو لم يدرس الثورة الفرنسية وظروفها. وهكذا، حيث كان بين 1833 و1843، أصدر الأجزاء الستة الأولى من "تاريخ فرنسا" واصلاً فيه إلى عصر لويس الحادي عشر، أوقف ذلك كله، ليمضي السنوات السبع التالية في دراسة الثورة الفرنسية والكتابة عنها ونشر أجزاء كتابه عنها، قبل أن يستأنف لاحقاً عمله على "تاريخ فرنسا" ويتابع إصدار أجزائه.

وهكذا ولد كتاب "تاريخ الثورة الفرنسية" الذي لا يزال يُقرأ حتى اليوم قراءة مرجعية، وصاغ ذهنية عشرات الملايين من الفرنسيين ونظرتهم الى ذلك الحدث الجلل، الذي لم يغير تاريخ فرنسا وحدها، بل ساهم كذلك في تغيير تاريخ أو أفكار أمم بأسرها. ومع هذا يبقى ثمة سؤال دائم هو ذاك الذي طُرح يوم الاحتفال بالمئوية الثانية للثورة: هل يمكن حقاً الوثوق إلى الأبد بهذا الكتاب؟ هل هو التاريخ النهائي لتلك الثورة؟ الحقيقة ان الجواب البديهي، اليوم، هو النفي بالنسبة الى السؤالين. ومع هذا من غير الممكن تكذيب أي فصل من فصول الكتاب، لأن ميشليه روى فيه الأحداث كما دارت، وصوّر فيه شخصيات الثورة كما عاشت... لكن دائماً من وجهة نظره هو، لا من وجهة نظر التاريخ الموضوعي، أو من وجهة نظر فلسفة تفسيرية للتاريخ تنطلق من شتى الاحتمالات في توازٍ بينها، ولا حتى من وجهة نظر فلسفية للتاريخ تربط الأحداث الكبيرة بالأحداث الصغيرة...

في اختصار إذاً، كان من الضروري دائماً قراءة "تاريخ الثورة الفرنسية" لميشليه، كما هو وضمن حدوده: أي نصاً سردياً كتبه مفكر ومؤرخ غلّب ايديولوجيته الشخصية على فحوى عمله، وغلّب عواطفه على تفسيراته للوثائق المهمة والغنية التي وقعت بين يديه واستخدمها... ما جعل الكتاب في نهاية الأمر "وسيلة مثلى لترويج أفكاره السياسية لدى الرأي العام". وهو حقق في مهمته هذه من النجاح ما جعل الثورة الفرنسية طوال حقبة طويلة من الزمن، لا تُرى، إلا عبر مرشحه الفكري.

بينما كان هناك محاولات للربط بينها وبين الإرهاب الأيديولوجي والحكم الشمولي المرعب في القرن العشرين. في 1983 كانت صلةٌ مختلفةٌ بالأحرىِ قَدْ افترضتْ مِن قِبل بيري تشونو: "فترة اليعاقبة يُمكنُ اليوم فقط اعتبارها الفعل المؤسس لسلسلةٍ طويلةٍ ودمويةٍ تَمتدُّ من 1792 إلى الوقت الحالي: من الإبادة الجماعية الفرنسية في الغربِ الكاثوليكيِ، إلى الجولاج السّوفيتيِ. إلى الدمارِ الذي سّببته

يبدأ جول ميشليه كتابه بأن يلقي نظرة سريعة، في التمهيد، على تاريخ فرنسا العام، وهو بعد ذلك يفرد بقية صفحات الكتاب، ليروي حكاية الثورة منذ انتخاب الأركان العامة، حتى موت روبسبيير... أي كل الأحداث الثورية، وضمن ذلك إعدام الملك لويس السادس عشر، الذي لا يدينه ميشليه بوضوح حتى وإن كان لا يفوته، في بعض الصفحات، أن يهاجم حقبة الإرهاب المريع التي عاشتها الثورة بعد فترة يسيرة من "انتصارها"، إذ نجده يقول بكل وضوح: "لم يكن الإرهاب هو الذي أنقذ الثورة... بل إن الثورة أُنقذت على رغم الإرهاب". ("تاريخ الثورة الفرنسية" لميشليه: من يكتب التاريخ "النهائي"؟ – مقال – إبراهيم العريس – جريدة الحياة اللندنية – ٢٦ مارس ٢٠١٣.)

الثّورةِ الثّقافيةِ الصّينيةِ، إِلى الإبادة الجماعيةِ التي ارتكبها الخمير الحمر في كمبوديا".[1]

كَانتْ أطروحة تشونو أن صلة الثورة بالاستبداد كَانتْ عقائدية أكدتها الممارسة الثورية، ممثلة في القمع الإبادي في فاندي (فندييه) في 94/ 1793. الأطروحة قدمها طالب دكتوراه هو رينالد سيشر في 1985.

كانت أطروحة سيشير أَنْ يصدر كتابين أحدهما كَانَ دراسة قرية سيشر نفسه (La Chapelle-Basse-Mer) لا تشابيلي باسي مير؛ الآخر، الدّراسة الأوسع بالعنوانِ المذهلِ "إبادة جماعية فرنسية" وهو يُترجمُ الآن لأول مرة.[2]

في البداية يَجِبُ أَنْ يقالّ إنه غريب لمطبعة جامعةِ أَنْ تَنْشرَ ترجمة كتاب لأولِ نَشرَ في 1986 بدون أي محاولةِ مِن المؤلفِ لأَنْ يَرْدَّ على الانتقادات التي أثيرت عند نَشره للمرة الأولىْ، ودون أن يشير إلى ما إذا كانت هناك مراجع جديدة قد ظهرت منذ 1986، وهناك كمثال ما كتبه جين كلمينت مارتن وميتشيل راجون.[3] ....

وصف الإبادة الجماعيةِ جلب على سيشر التشهير لكنه ساهم بالتأكيد في رواج الكتاب تجارياً، وهو على أية حال، استند على استعمال راديكالي للمصطلح واتبع منهجاً تاريخياً مثيراً للخلاف. تّعبير "إبادة جماعية" قَدْ سُكَّ في 1944 مِن قِبل العالمِ اليهودي البولندي رافايل ليمكين الذي جَمعَ بين اليوناني genos (عرق) واللاتينيِ cide (القَتْل) لوصف مشهد الرّعب الفريد للمعاناة اليهوديةِ في أوروبا على يد هتلر. منذ 1948، تبنت الجمعية العمومية للأمَم المُتّحِدةِ الاتفاقيةَ على تمنع الإبادة الجماعية وتعاقب مرتكبيها، وفيها عُرِّفتْ

الإبادة الجماعية كأَفْعالِ بأنها:

"العمل عمداً على تحطيم، تامٍ أو جزئيٍّ، لشعبٍ أو جماعةٍ عرقيةٍ أو إثنيةٍ أو دينية". ومنذ ذلك الحين طُوِّرتْ تعريفات جديدة بينها التعريف المفيد لفرانك تشوك وكورت جوناسون: "قتلٌ جماعيٌّ أحاديُ الجانب في دولةٍ ما. أو سلطة أخرى تَنْوى أَنْ تُحطّمَ مجموعة، لأن تلك الجماعة تعد مجرمة".[4] بناءً على هذه المراجعة الحرب الأهلية في فاندي (فندييه) لا يُمكنُ أَنْ تعتبر "قتلاً جماعياً أحادي الجانب"، ولا تعد الاتفاقية دّليلاً على أن سكان فاندي (فندييه) بالتحديد كانوا هدفاً للإبادة. وليس هناك شكُ، بالطبع، في أن فاندي (فندييه) تكبدت خسائر بشرية فادحة، تقديرات حديثة تَراوحتْ بين افتراض تشونو السّخيف الذي يقدرهم بـ 500,000 قتيل من المتمرّدين إِلى تخمينِ جين كلمينت مارتن بحدود 250,000 من المتمردين و200,000 من الجمهوريين[5].

المدهش أن تقدير سيشر يبقى مبالغاً فيه بناء على إحصاءات تشير إلى أن ال 773 وحدة إدارية (كوميونة) المشاركة في الحرب فقد كلٌّ منه في الحد الأدنى تقريباً 15 بالمائة من سكانها (117,257 من 815,029 إنسان) وتقريباً 20 بالمائة من مساكنهم (10,309 منزل من 53,273).

وفي تقدير للخسائر التي تَكبدها المتمرّدون يقبل سيشر تقديرات النظام السابق لسكانِ الكوموناتِ المشاركة في الحرب الأهليةِ ويُقارنهم بإحصاء السكان عام 1802 دون أن يأخذ في الاعتبارُ احتمال هروب كثير من السكان بسبب الحرب، أو أن من فقدوا أملاكهم بالغوا قي الأرقام لاحقاً.

افتراض سيشر أن هذا الحجم من القَتْلِ إبادة جماعية استنادا لسلسلةِ من التّصريحاتِ مِن قِبل الموظفين الثّوريين وقادةِ الجيشِ.

في 1 أكتوبرِ 1793، قال "المجمع المقدس" للجيشِ المرسل إِلى الغربِ:

"يا جنود الحريةِ

إن لصوص فاندي (فندييه) يَجِبُ أَنْ يبادوا

جنود الأمةِ يطلبون ذلك

نفاد صبر الفرنسيين يفرض ذلك

شجاعتهم يَجِبُ أَنْ تُتم ذلك ...."

تصريحات متوالية لضبّاطِ الجيشِ كَانتْ أكثر صراحة وحدة، مثل بيوفورت، الذي تمنى، في ينايرِ 1794، "تطهير أرض الحرية تماماً من هذا الجنس المَلْعُونِ".(p. 250.)

وحسب سيشر فإن "هذا الانتقام لَيسَ هو المخيف فهي أَفْعالٌ حتميّـةٌ حَدثَت في الأجواء الساخنة للمعركة في حربٍ طويلةٍ وشنيعةٍ، لكن في الواقع حدثت مذابحُ مُخَطَّطةٌ مُنَظَّمةٌ، ومُبيَّتةٌ ارتـُكِبتْ عمداً، وكَانتْ هائلةَ ومنظّمة، بالنّيةِ الواعيةِ والواضحةِ لتَحْطيمِ دين، وإبادة واضحة المعالم لكل الناس: النِساء والأطفال أولاً، بهدف استئصال "الجنس الملعون"" (p. 251).

سيشر رَجعَ لموضوعِ الإبادة الجماعيةِ في حرب كلامية فظة (***Juifs et vendéens: d'un genocide à l'autre*, in 1991**) [6] بينما بشكل مراوِغ ادعى أنه لا يريد الربط بينها وبين الهولوكوست (لذا يُغضبُ منكرو الهولوكوست).

سيشر ببساطة يهدف لإثبات أن النظام الثوري مثل النّظامِ النّازي كلاهما كان إبادياً: "إذ رغم النّوايا، فإن الإبادة الجماعية لم تكن تعامل بشكل مبدئي فقط بسبب نقص المصادرِ". (p. 253).

وثمة صعوبة تواجه سيشر تتمثل في أنّ الجمعية الوطنية في أبريلِ 1794 اعتبرت نفسها "مُطَمئَنة": إلى أن "الأخطبوط القبيح" فاندي (فينديه) "يَعُدُّ قادراً على الدعاية للثورة المضادة، لذا سنفعل كل ما يمكن لإنقاذها" (p.252.) بمجرد أن أصبحت المنطقة تحت رحمتها، فإن الجمعية لم تستمر في الإبادةِ.

لم تكن إبادة جماعيةَ:

أعدادٌ ضخمة من الناسِ قُتِلتْ، لكن ليس بالتحديد لأنهم سكان فيندي ولا لأنهم كَانوا كاثوليك متدينين (مخلصين).[7] علاوة على ذلك، ومن البداية فإن الجمعية وقادتها العسكريين ضمنوا إحصاءاتهم المساندين المحليين من الجمهوريين (أنصار الثورة من أهل فاندي) هؤلاء لم يكونوا "الفانديين" الذين كَانوا العدوَ. الجمعية درست مقترحاتَ تأديبية بإعادة توزيع ممتلكات المتمردين على "الوطنيين" المحليين.

إنّ الاستنتاج الحتمي هو أن هذه كَانتْ حرباً أهليةَ وحشيةَ. ادعاء سيشر أن التّمرد كَانَ "قبل كل سيئ حملة صليبية دفاعاً عن الحريةِ الفرديةِ"، سَحقها نظام "إبادي" يُخبرُنا أكثر عن رؤيته للتاريخ الأوروبي المعاصر أكثر رؤيته للثورةِ الفرنسيةِ (p. 249.) الكثير مما في كتاب سيشر ليس مفاجئاً رغم تحيّزه وانتقائيته، فوصفه للبنى الدّينية والاقتصادية والاجتماعية في غرب ما قبل الثورة مألوفٌ بشكل كبير، حتى مع مبالغته في "الثّروة العظيمة" للمنطقة ليركز على الدمار الاقتصادي وأيضاً الدّمار الإنساني الذي تلاه (p. 164.) وهو على نحو مشابه، يَعترفُ بأن سّكان الرّيف لم يكن لديهم صبر على التّغيير، في 1789، "الفانديون كَانوا مجمعين تقريباً على الحماس للتغيير، هم إذن رحبوا بحماس بالمبادئ الأساسية للثّورةِ منذ 1789. و.....أعدَّوا بمشاعر إيجابية لحكومات بلدية منتخبة ولم يكن هناك أسف

لاختفاء المؤسسات الإبرشيبة القديمة". (p.23)
أسباب التّمرد إذن يَجِبُ البحث عنها في تغييرات كانت ضرورية قامت بها الثورة، والثّورة لم تجلب لفلاحي فاندي (فيدييه) فوائدَ واضحةٍ. فهناك ضرائب عامة أكبر جُمِعتْ بشكل أكثر صرامة، بواسطة البرجوازية المحلية التي احتكرتْ المناصب الجديدة، والمجالس البلدية بينما أيضاً بيعت مساحات واسعة من أراضي الكنيسة 1791.
لكن بالنسبة لسيشر الأكثر أهمية كان قبل كل شئ إصلاحات الثّورةِ العلمانيةِ للكنيسة، وهي إصلاحات كانت معادية للغرب التقي المتدين. ومن أخطاء فيشر، مثلاً، فشلهُ في تشخيص فشل التّجمّعات على المدى الطويل في إصلاح السمة المميزة لسكان الغربِ. رد فعل المجتمعات الريفية على هذه الشكاوى المتراكمة جاء في 2 – 1790 باحتقار رجال دينِ منتخبين بواسطة "نشطاء" مواطنين، وبمُقَاطَعَةِ الانتخابات

المحلية والوطنيةِ، وتكررت حالات التعامل العدواني مع الموظفين المحليين. وأكثر من أي شئ كان مرسوم التجنيد الإجباري الصادر في مارس 1793 ما زاد كراهيتهم، للموظفين البرجوازيين الذين فَرضوه.

حقول bocage كانت مكاناً مناسباً لحرب العصابات بالاختفاء ونصب الكمائن ثم التراجع في دورة شريرة من قَتْلِ وغدر بالآخرين. الهدف الأول للمتمردين كَان الموظفين المحليين، الذين تعرضوا للهجوم والإذلال، وفي مراكز حضرية صغيرة مثل ماتشيكول، عذب وقتل حوالي 500 من الجمهوريين في موكبِ (وهي حلقة في مسلسل أهمله سيشر). وللمفارقة فإن أكثر ما هو مخيب للآمال في كتاب سيشر فشله في إحصاء الأعمال الوحشيةِ التي ارتكبها الجانبان. إنه تَحيّز تأريخي بشكل يائس خلاصته أنه تأريخٌ قصصيٌ للحرب الأهليةِ لكنه في حقيقته قائمة بالأعمال الوحشيةِ للجمهوريين، الحقائق والمزاعم.

حقيقةً، هو يورد بشكل عابر أن الفانديين قتلوا جمهوريين وفِرَقاً عسكرية، لكنه يعلق: "كَانَ هذا في جوهره انتقاماً موجها ضد ممثلي الحكومة"، بواسطة "شجعان" فانديين كانوا يعرفون أنهم "سيتم ذبحهم بلا رحمة إذا استسلموا".(p. 114) السّؤال الأكثر مركزية: لماذا كَانَ القَتْل على كلا الجانبين شّاملاً وشنيعاً؟ لم تُقدَّم إجابة. نحن نجيب ببساطة "المجندون الجدّد كَانوا غير منضبطين ينتشون بالقتل والسّلب"، بينما سيشر قانع بإعادة إنتاج القصص الأكثر بشاعة بوصفها حقيقة.(p. 107) في الوقت نفسه، وبخاصة في السَّنَواتِ التّالية سُجّلتْ شهادة وافية حول الأعمال الوحشيةِ التي ارتكبتها الفِرَق العسكرية للجمهوريةِ. ورينالد سيشر يسوِّق قصصاً بوصفها حقائق منها أنه، في كليسون، تم إلقاء أناس وهم أحياء في بئر قلعة؛ و150 امرأة تم إحراقهم بديلاً عن المحروقات، وعن حالة تم فيها دبغ جلد الضّحايا

وصنعت منه أسرجة لخيول ضباط كبار. (p. 134) الشيء نفسه جرى في نانت (Nantes) ولا فلتش (La Flèche) (p. 134.) وبالنسبة للعديد من مثل هذه الادعاءات فإن مراجع سيشر هي لمذكرات ترجع للقرن التاسع عشرِ، والمؤلفُ لم يحاول أن يُقيِّم المصداقية ولا أن يسوق تبريراً لحدوثها.

ومن المؤكد أن، ذكريات هذه السّنةِ الشّنيعةِ حُفِرتْ بعمق في الذاكرتين الفردية والجماعية في الغربِ. فمثلاً، اكتشاف مقبرة جماعية كتلِ العظامِ في لي لوس (Les Lucs) مِن قِبل الخوريِ الأبرشيِ في 1860 التي اكتشفها كاهن الأبرشية عام 1860 نتج عنها أسطورة ما زالت قوية حتى الآن هي أسطورة (The "Bethlehem of the Vendée")". وطبقاً لها فإن 564 امرأة و107 طفل والعديد من الرّجال ذُبِحوا يوم واحد هو 28 فبرايرِ 1794. سيشر يُشيرُ إلى هذه المذبحةِ كما لو كانت حقيقة (p. 200) ومن الواضح أنه لم يشعر بحاجة لإعادة النظر في ادعائه في ضوءِ البحوث التّاريخية الحديثة.[8]..............................

وفي الواقع، فإن سيشر جَعلَ وظيفته الترويج الجماهيري لروايته لذّكرى فاندي (فينديه). اليوم، واصفاً نفسه بأنه "اختصاصي في حقلِ الهويةِ والذّكرى الوطنية"، وهو مديرُ إصدارات رينالد سيشر، ويصدر

بنجاحٍ واضحٍ أشرطة مُصوَّرةً تاريخية وكتباً هزلية عن تاريخ بريتاني.

ويَبْقى العصيان المسلح العنصرَ المركزيَ في الهوية الجماعيةِ لسكان غربِ فرنسا، لكن، من المشكوك فيه أنهم – أو المؤرخون المتخصصون – قد خدمهم أسلوب سيشر الفظ وحروبه الكلامية المفتقرة للمنطق.

NOTES

[1] Hugh Gough, "Genocide and the Bicentenary: The French Revolution and the Revenge of the Vendée," Historical Journal 30 (1987), p. 978.

[2] La Chapelle-Basse-Mer, village vendéen: revolution et contre-révolution (Paris: Perrin, 1986). The prefaces to the French edition of Le Génocide franco-français by Meyer and Chaunu are missing from this English translation.

[3] The only historians referred to in passing are Charles Tilly, Paul Bois and (dismissively) Claude Petitfrère. Among the subsequent work on the Vendée, see Jean-Clément Martin, La Vendée et la France

(Paris: Seuil, 1986); Michel Ragon, 1793: l'insurrection vendéenne et les malentendus de la liberté (Paris: A. Michel, 1992); Paul Tallonneau, Les Lucs et le génocide vendéen: comment on a manipulé les textes (Luçon: Editions Hécate, 1993); Alain Gérard, La Vendée: 1789-1793 (Seyssel: Champ Vallon, 1992). A particularly effective review essay of works on the counter-revolution is Gough, "Genocide and the Bicentenary."

[4] Frank Chalk and Kurt Jonassohn, eds., The History and Sociology of Genocide: Analyses and Case Studies (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1990), p. 23.

[5] Martin, La Vendée et la France.

[6] An attack on Secher from the right is by André Martin, "Le Faux pas de Reynald Secher," Revue d'histoire révisionniste 4 (février-avril 1991), pp. 152-64.

[7] Note the comments of Alain Gérard, Pourquoi la Vendée? (Paris: Armand Colin, 1990), pp. 219-20.

[8] A more recent estimate is that between 300 and 500 of Les Lucs' 2,320 people were killed in all the fighting during the Vendéen insurrection: Jean-Clément Martin and Xavier Lardière, Le Massacre des Lucs, Vendée 1794 (Vouillé: Geste éditions, 1992). See too Paul Tallonneau, Les Lucs et le génocide vendéen. Comment on a manipulé les textes.

-France Review Vol. 4 (March 2004), No. 26

حرية .. إخاء. . . . .ووحشية

الكتاب: الإرهاب:حرب أهلية في الثورة الفرنسية

المؤلف: دافيد أندرس

مراجعة: مونرو برايس

(مونرو برايس مؤلف "سقوط الملكية الفرنسية" (ماكميلان)

(* **Munro Price is the author of "The Fall of the French Monarchy'** (**Macmillan**).

في العقود القليلة الماضية، وخصوصاً منذ 11 سبتمبر 2001، أصبحت كلمة "إرهاب" تـُستخدَم بشكلٍ مفرط. اليوم. وغالباً، عند استخدامه تقفز للذهن صور متعصبين متلحين يحضرون "الرايسين" في شمال لندن، ومن المفيد أن نذكر بأنه أصلاً يعني شيئاً مختلفاً جداً.[74]

([74]) في قراءته للكتاب كتب كمال نامق (الشرق الأوسط اللندنية) تحت عنوان: "تاريخ مفردة الإرهاب: تسلسل تاريخي لـ "شيء شبحي"": "استخدمت مفردة الارهاب في مضمونها الحديث لاول مرة عند وصفها الأساليب الدموية والقسرية التي مارستها حكومة الجمهورية الفرنسية بين عامي 1793و 1794، وذلك لفرض آيديولوجيتها على البلد المتمرد باستمرار.

كان تحليل الارهاب يشكل دائما معضلة للمؤرخين، لأن كل واحد منهم يفسره بطريقة مختلفة. وبالنسبة للكثير منهم يعتبر الارهاب شيئا شبحياً. كان أوائل الإرهابيين من الرجال، أمثال روبسبير، سانت جست، وجان بول مارا، الذين خططوا ونفذوا هذه السياسة المرعبة. وأول ما فكر به مبدعو الإرهاب ليس في استخدامه ضد الحكومات، وانما كأداة فعالة موجهة ضد أولئك الذين يهدفون إلى التخلص منهم. في ما بعد اتخذ الإرهاب شكل القتل أن كان في تسعينات القرن الثأمن عشر في فرنسا أو ثلاثينات القرن العشرين في روسيا أو سبعينات القرن العشرين في كمبوديا.

ويضيف نامق: أكثر ما كتب عن الإرهاب في فرنسا خلال العشرين عاماً الماضية، كان من قبل المؤرخين الفرنسيين والإنجليز والأميركيين، غير أن الحاجة تدعو الآن الى تصنيف كل ما كتب في تسلسل تاريخي تقريري وطرحه لجمهور واسع من الناس، وهذا ما هدف اليه الكاتب ديفيد أندرس في كتابه المهم عن الإرهاب والحرب الأهلية في الثورة الفرنسية. وقد حرص الكاتب على توضيح كل جوانب موضوعه. ما يعرضه الكتاب بوضوح هو الوضع المخيف والمرعب الذي وجدت فرنسا نفسها فيه عندما كانت في منتصف الطريق المؤدي الى الثورة. صيف عام 1792، ضعفت الثقة تماما برأس الدولة الملك لويس السادس عشر الذي ارتكب حماقة جر البلاد الى حرب مع النمسا وبروسيا، ونتيجة ذلك أصبحت العاصمة تحت طائلة التهديد. ولمواجهة هذه الحالة وبالتالي تصفية الحسابات قام المتطرفون الفرنسيون بحركة أطاحت الملكية في العاشر من أغسطس، وأعلن عن فتح باب التطوع في الجيش وأوقف غزو القوات الاجنبية عند خالمي في العشرين من سبتمبر، وفي اليوم التالي أعلن عن تأسيس الجمهورية الفرنسية الأولى.

هذا الانتصار الوطني الكبير الذي احتفل به في نصوص عدد لا يحصى من المدارس الفرنسية كان له أيضاً وجهه المظلم: ففي اللحظة التي سار فيها المتطوعون الى الجبهة، كان الجمهور الباريسي مقتنعاً بأن سجون العاصمة تحتوي على عناصر خطرة من المضادين للثورة أو الذين يعرفون باسم الطابور الخامس، فاندفعت نحوهم الجماهير وجزوا رقاب 1500 من نزلاء هذه السجون. في ما بعد اشتهرت هذه الحادثة باسم "مجازر سبتمبر".

بعد هذه المسرحية "الشعبية" استغرق الإرهاب الرسمي، حوالي سنة أخرى. ومرة أخرى كان بسبب تردي الاحوال العسكرية على الجبهات. لكن هذه المرة كان تحت اسم مناهضة الحكومة في ليون، مرسيليا، كولون، وفي فاندي (فينديبه) غرب فرنسا.

ويضيف كمال نامق: "كانت استجابة الدولة هي التخلي التام عن حكم القانون". وأعلن عن قانون الاشتباه في سبتمبر 1793، ثم تبعه إلغاء حقوق الدفاع في يونيو 1794، ومن خلال هذه القرارات المخيفة ارسلت المحكمة حوالي (30) ألف انسان الى المقصلة. بيد أن الأكثر دموية كان في القمع الوحشي للمنتفضين في الاقاليم. وما حدث في مدينة فاندي (فينديبه) يعتبر أكثر من مجزرة جماعية بحيث أن موظفي الحكومة استخدموا لغة الإبادة. ولعل عدد ضحايا هذه المجزرة وصل الى ربع مليون إنسان.

الإرهاب، في الوعي الحديث، استعُمِل للمرة الأولى لوصف الطرق الدامية والقسرية التي استعملتها الحكومة الجمهورية الفرنسية بين عامي 1793 و1794 لفرض عقيدتها على بلد كان غالباً عنيداً.

والحالة الظرفية يمكن أن تفسر بعض الأشياء، ولكن لا يمكنها ان تفسر كل شيء عن الارهاب. فعند قراءة خطب روبسبير وسانت جست يجد المرء صعوبة في تصور الأزمة الثورية بالنسبة لهما ولرفاقهما مجرد اجراء محاكمة، وإنما مناسبة فريدة لخلق مجتمع جديد. مدينة فردوسية فاضلة مؤسسة على طراز جان جاك روسو، مبدأها التوأمان: الفضيلة والإرهاب. وهذه رؤية مانوية، قوامها الصراع بين النور والظلام، حيث يمجد ويرفع من شأن الفضيلة، ويجرد الاشخاص من صفاتهم الإنسانية، و"من الممكن هنا تلمس أولى الإشارات الأصلية للشمولية الحديثة". القصة التي يرويها المؤلف ديفيد أندرس عن انتقال الثورة الفرنسية من البدايات المثالية الى الدولة الدموية البوليسية هي قصة مؤثرة، لكنها في الوقت نفسه قاتمة جداً.

(تاريخ مفردة الإرهاب: تسلسل تاريخي لـ "شيء شبحي" – مقال – جريدة الشرق الأوسط اللندنية – كمال نامق – 26 أكتوبر 2005).

الإرهابيون الأوائل كانوا رجالاً مثل روبسبير، سان جوس، ومارات، الذين خططوا هذه السياسة المخيفة وطبقوها. والإرهاب في التصور الأولي لم يكن سلاحاً لمواجهة الحكومات، بل كان الأداة النهائية في يدها، وهو في الشكل الثاني، سواء في 1790 في فرنسا، أو ثلاثينات القرن العشرين في روسيا أَو في سبعينات القرن نفسه في كمبوديا، كان دائماً القاتل الأكثر بشاعة. الأعمال الأكثر أهمية عن الإرهاب الفرنسي تمت على يد مؤرخين فرنسيين وبريطانيين وأمريكيين، وهناك الآن حاجة لسرد هذا في تاريخ قصصي يُسهِّل وصوله لجمهور أوسع. هذا هدفُ ديفيد أندرس، والذي حققه عموماً في هذا الكتاب المكتوب جيداً والـُمنتـَج بأناقة. الإرهاب، كَمَا هو الحَال دائماً، يخلـِّف عدداً كبيراً من جثث الضحايا، وهو أيضاً يُحرّكُ عواطفَ عميقةً، ووسط هذه الاضطرابات يصعب على المؤرخين غالباً الإبقاء على توازنهم. ورغم هذه المخاطر تبقى هناك حسابات عادلة

على نحو جدير بالثناء، وأندرس معنيٌّ بإظهار دوافع كل جوانب هذا الصراع المحدد.

وهو في عمله، على أية حال، يعبر أحياناً الخيط الرفيع بين "التفسير" و"التبرير" في تعامله مع بعض الجرائم التي ارتـُكِبـَت باسم الحرية.

ما يكشف عنه الكتاب بشكلٍ واضحٍ، هو الوضع الرهيب الذي وجدت فرنسا نفسها فيه في منتصف طريق الثورة. فمع صيف 1792، كان رأس الدولة، الملك لويس السّادس عشر، مفتقراً للثقة تماماً، وكانت البلاد قد زلـَّت قدمها في حرب كارثية مَع النمسا وبروسيا، وسرعان ما بدت العاصمة باريس نفسها شبه مهددة.

ومواجَهين بهذا المشهد الرهيب، قام متطرفو باريس بعمل حاسمٍ ووحشيّ: الحكم الملكي أُسقطَ العاشر من أغسطس، وأُطلِقت عملية تحفيز هائل لتسجيل المتطوعين للجيش، تم إيقاف الغزو الأجنبي عند فالمي في العشرين من سبتمبر، وفي اليوم التالي أعلنت أول جمهوريات فرنسا الخمس.

هذا الإنجاز الوطني العظيم، مهما تم الاحتفال به في عددٍ لا حصر له من كتب النصوص المدرسة الفرنسية، كان له في الواقع جانبٌ مُظلمٌ جداً.

في اللحظة نفسها، كان المتطوعون يزحفون للأمام وتم إقناع الحشد الباريسي بأن سجون العاصمة تضم "طابوراً خامساً" من أعداء الثورة الخطرين، واقتُحِمت السجون وذُبِح 1500 نزيل في مذبحة سبتمبر "سيئة السمعة".

بهذا الحدث التمهيدي "الجماهيري"، أخذ الإرهاب "الرسمي" ما يقرب من سنة أخرى ليبدأ. وثانية، كان مُرحَّباً به بسبب سوء الأوضاع العسكرية على جبهات القتال، في هذا الوقت تضافر هذا مع تزايد المعاداة للحكومة في ليون ومارسيليا وتولون، وقبل كل هذا، وقبل كل شيء، في فاندي (فندييه) في غرب فرنسا.

رَد الدولة كان التخلي التام عن القانون:

- سُجِن أيٌّ شخصٍ يُشتبَهُ في تعاطُفِه مع الثورة المضادة – ضمن ذلك النبلاء السابقون بغض النظر عن العمر أَو الجنس – وقد تقرر ذلك بموجب "قانون الاشتباه" في سبتمبر 1793.
- تبَـِع ذلك، حرمانُ المتهمين من حقوقهم كافة في يونيو 1794.

- **بهذه الوسائل الجبانة تم تقديم 30,000 شخصَ تقريباً، لمحاكم أرسلتهم إلى لمقصلةِ في "إرهاب قضائي".**

ما هو معروف على نحو أضيق من هذا، لكن أكثر دموية بكثير، كان القمع الوحشي للتمردات الإقليمية. ما حدث في فاندي (فندييه) كان أقرب للإبادة الجماعية، واستخدم المسئولون الحكوميون لغة الإبادة بشكلٍ علني، وربما مات ربع مليون شخص.

تبرير هذا الرعب شكّـَل دائماً مشكلة رئيسة للمؤرخين، وقد استجابوا له بطرق مختلفة. بالنسبة للكثيرين، الإرهاب فظيع أينما كان، وقد كان مجرد رد فعل للظروف القصوى: للتفكك في الداخل والحرب من الخارج.

يَعُودُ ديفيد أندرس ينتمي بالأساس إلى هذا المعسكر، رغم أنه – نحو مرحب به – يشدد على أهمية الحرب الأهلية في حالة الاستقطاب. ومن قبيل المجادلة، القول بأن بعض الأعمال الوحشية يمكن أن تجد تبريراً عقلياً، وعلى أية حال قد ينزل واحد على منزلق مراوغ عبر جعلها "نسبية" أو حتى تقليلها. ومعالجة دافيد أندرس لمذبحة سبتمبر مثال جيد لذلك. قد يكون الأمر حقيقياً، كما يعرضه، أن المحاكم المؤقتة عُقدت في السجون حيث حدثت المذابح، وأن نصف من اتهموا تمت تبرئتهم، لكنه لا يمكن أن يجادل في أن هذه المحاكم الصورية، عملت بين حشود الغوغاء وما صدر عنها شيء لا يمكن أن يشبه العدالة. المقاربة الظرفية قد تفسر بعضَ الإرهاب، لكنها لا يُمْكِنُها أبَداً تفسير كل الإرهاب. وعبر قراءة خطب روبسبيير وسان جوس، يصبح المرء مدركاً أنه بالنسبة لهم ولزملائهم، لم تكن الأزمة الثورية ببساطة اختباراً

يتغلبون عليه، بل فرصة فريدة لخَلْق مجتمعٍ جديدٍ، "مدينة سماوية" مستندة على تصاميمِ جين جاك روسو.

ودعامتاه الرئيستان ستكونان:

- الفضيلة
- الإرهاب

وبعبارة روبسبير الشريرة:

"الفضيلة بلا إرهاب قاتلة، الإرهاب بلا فضيلة عاجز". وقبل كل شيءٍ، كانت رؤية Manichean هذه، تمجد "الفضلاء"، وتنزع الصفات الإنسانية عن شخص يتم إدراكه بوصفه عدوهم، وتكرس مصادرَ لم يسبق لها مثيلٌ لإبادة مثل هؤلاء الأعداء.

الصوت لم يكن تام الوضوح، والنتائج كانت في أغلب الأحيان عشوائيةً، لكن المرء يمكنه التعرف عليها كأول صوت حقيقي للاستبداد الحديث.

القصة التي يرويها ديفيد أندرس عن انحدار الثورة الفرنسية من البدايات المثالية إلى الدولة البوليسية، إنها قصةٌ مظلمةٌ ومحبِطةٌ بشكل مفرط. بسبب طبيعتها الحادة، فإن القليل من الضوء يخترق الستر المسدلة عليها، وليس كل وء قادراً على اختراق الحُجُب.

واحدة من القلة التي تفعل ذلك، سيدات سان فينسنت المهيبات على اللوار الأعلى.

ذات يوم في ذروة الإرهاب، جُمع كل السكان في الكنيسة للاستماع للمسؤولِ المحليِّ، عضو نادي اليعاقبة الثوري المهيمن، وهو يبسط مبادئ الدينِ المدنيِ الجديدِ الذي أمر به روبسبير للتو. وما إن بَدأَ حتى تحركت كل النساء ليصنعن دائرة وأعطينه ظهورهن واعترضن تعرية مؤخراتهن!

بينما يعلق أندرس تعليقاً ملتوياً:

"دعوة اليعاقبة لم يكن لها من رد إلا مثل هذه المناورة". لهذا وحده، فإن نساء سانت فينسنت يستحققن نصباً.

Liberty, fraternity and brutality
(Filed: 22/05/2005)

دايلي تلجراف

الثورة الفرنسية ملهماً للطغاة

بقلم : رافائيل بيهر

الأحد 22 مايو 2005

الأوبزرفر البريطانية

هناك تقنيتان أساسيتان لتنفيذ القتل الجماعي. الأول: أن تثير ثائرة الغوغاء لارتكاب مجزرةٍ عشوائية. والأسلوب الأكثر تعقيداً يستخدم الأيديولوجيا لتجريد الناس من إنسانيتهم، ويستخدم المحاكم لإضفاء مشروعية على إعدامهم.

التاريخ الإنساني مليء بكلا الأسلوبين. وحديثاً جداً، استُخدِم الأسلوب القديم لتنفيذ الإبادة الجماعيةِ في رواندا؛ بينما الأحدث كان مفضلاً خصوصاً من ستالين. لكنها الثورة الفرنسية التي اخترعت التقنية التي تبنتها بعد ذلك كل الأنظمة الغاصبة للسلطة من: سان بطرسبرج 1917 إلى سانتياغو السبعينات؛ إرهاب غوغاء للاستيلاء على السلطة، وإرهاب بيروقراطي لدعمه. المؤرخ ديفيد أندرس يقدم تقييماً جديداً للإرهاب عبر وصف كيفية استيلاء حركة الجمهوريين الفرنسيين على السلطة، متأرجحة، ثم منقسمة على نفسها ومكررة الانقسام ككائن حي يبدل شكله، حتى لا يكاد تبقى خلية واحدة على حالتها الأصلية. وفي السيرورة شغلت نفسها بهستريا مذعورة، قطعت فيها رؤوس مئات الرجال كل شهر. وهي قصة معقدة بشكل مدهش تلك التي نظمها أندرس للمرة الأولى في قصة متسلسلة على نحو سهل. مجاراة النوادي والصحف والجمعيات التي انتفضت ثائرة واحداً تلو آخر ودوار

الصعود والهبوط والتردد بشأن محاسن الثورة يجعل القصة الكاملة يصعب استيعابها. يبدو أن معظم باريس قضت عام 1790 مشغولة بمباريات خطابية، كانت كجملة يفصل أجزاءها النقاط والفواصل، نشوب عنف غوغائي. تخيّلْ حشداً هائجاً مسلحاً بحربة جيرمي مرتدين سراويل قذرة. بينما البلاد في الوقت نفسه تحارب بقية أوروبا، وقلة من الفلاحين أنصار الملكية متمردة.

........كان بقاء البلاد موحدة يبدو مستحيلاً، بينما النواة الصلبة من الثوريين كانت في حاجة إلى معجزة، ويصف أندرس ورطة اندفاع بلدٍ إلى أزمة ما بأنه شكّـل عائقاً أمام الاعتدال فكان يوماً لانتصار التشدد. وعندما تكون غاضباً، فمن السهل جداً اتخاذ قرار حاسم مثل ماكسميليان روبسبير أو جورج جاك دانتون، مع القناعة الرسالية بأنك تُجسِّد الإرادة الجماعية للشعب. وكلا الرجلين انتهى على المقصلة. إنه شيء قريب من

حملات التطهير الأيديولوجي وقد حصلوا على الزخم الجماهيري. فعند إعدام لويس السادس عشر لم يكن هناك على الأرض سلطة عليا سوى جمعية وطنية منتخبة من الناس بأغلبية هزيلة. وهكذا اخُترِعَت فكرة "أعداء الشعب".ووجدت الفكرة ساقين تمشي عليهما، فمثلاً لينين وتروتسكي تعلما من الفرنسيين اغتصاب السلطة عبر رفع شعارات بلاغية وتعطيل الديموقراطية وفرض الإرهاب. وهم ادعوا الحق في التعبير عن الجماهير الصامتة الأمية. وبعد ذلك التخلص من الأعداء نيابة عنهم. وهو منطق يربط بين روبسبير وبول بوت، مروراً بستالين.

وفي هذا أكاذيب تثير سخرية مرة تجاه معظم الثورات والأكثر سوءاً فيها هو إفساد معنى تقدميتهم.

والطريقَ بسيطُ:

* خذ موقعك المتميز.

* عزِّز جماهيريتك

*** إذا أحبطك رد فعل المعارضة، تُقنِـع نفسك بأنك نخبة طليعية، وأن معارضيك يفتقرون للاستنارة السياسية.**

........* النتيجة، بناءً على ذلك، أن معارضيك أعداء لمبادئ الثورة، ثم ابدأ عندئذٍ في إعدام الناس. وعلى العكس، إرهاب فرنسا العظيم، لم ينفصل أبداً عن جذوره في حركة التنوير في القرن الثامن عشرِ. لقد جَعلَ الحرية وثناً، وكذلك السيادةِ الشعبية. وهو ما عزز التلاعب بحكم القانون على نحو ظلامي. وإلى حدٍّ ما، ساعدت تلك الجذور التنويرية على التصحيح الذاتي. الجلادون الكبار أنفسهم لم يكونوا محصنين، وفي النهاية دفعوا ثمن جرائمهم ضدَّ الأمة. كان هذا خطأً مبدئياً، والدرس الذي أمكن تعلمه بشكل واضح من الحكام الذين أتوا بعد ذلك، هو تطهير التنظيمات السياسية من المعارضين. فكلٌّ من ماو وستالين وهتلر كان يحرص على التأكد من الولاء الشخصي لرجال

النظام، فجعل كل منهم نفسه فوق القانون. وهذا الدرس تعلمه أولاً نابليون، الجنرال الذي، بَعْدَ أَنْ قضى على احتمالاتَ تمزيق فرنسا، وجد باريس غارقة في طقوس عربيدة، فأَخذ المبادرة وأصبح إمبراطوراً. وهنا ينهي أندرس قصّته، لكن لَيسَ قبل اقتفاء الظِلِّ الممتد الإرهاب الفرنسي.

أثبتت الثورةُ الفرنسية بالبرهان أنَّ الهمجية الـمُتعطشة للدماءُ ما كَانتْ فقط نتاج عصور الظلام. فالإنسانية صُمّمتْ على جَلْبها إلى العصر الحديثِ وألبستها أثواب القوانين والدساتير.

. . . .

خُذْ مثالَ روبسبير. صَعد المحامي الشاب الموهوب إلى السلطة، محاطاً بهالة سمعته كشخص مستقيم بلا أخطاء. وقد أعاد تشكيل الحركةَ التي انضم إليها، بتطهيرها من المعارضين وإحاطة نفسه بدائرة ضيقة مغلقة من العقائديين المتشددين.

لَكنَّه كَانَ صلباً كان لا يَستطيعُ تحمل فكرةَ قابليته لأن يخطئ. بقى أكثر مما ينبغي، وفي النهاية قُطع رأسه.

الإرهاب: الحرب الأهلية في الثورةِ الفرنسيةِ

تأليف ديفيد أندرس

مراجعة: روث سكيور

كلنا الآن متأثرون بالحرب على الإرهاب. منذ هجمات 11 سبتمبر 2001، والإرهاب يحتل قمة أولويات جدول الأعمال السياسي على جانبي الأطلسي، ولا أحد يستطيع أن يقول متى تنتهي هذه الحالة ولا شكل العالم عندما يحدث هذا.

في مثل هذه الأوقات المنذرة بالخطر، من المهم فهم ما يعنيه الإرهاب بالضبط.

كيف يعمل سياسياً؟

ما آلياته؟

وما الذي يمكن عمله – أيا كان – لمكافحته؟

المؤرخ ديفيد أندرس قدم مساهمة جدّية في هذا الموضوعِ المركزي في حاضرنا، بتعليل سهل المنال لنسبة الإرهاب للثورة الفرنسية في نهايةِ القرن الثامن عشرِ.

........يُواجهُ أندرس مباشرة شبهة أنه لا شيء سوى "سيل منساب مِنْ الكلمات" للربط بين حربنا المُعاصرة على الإرهابِ وبين الإرهابِ سيئ سمعةِ الذي عصف بفرنسا في 1793، وقذف الآلاف للموت تحت المقصلة. وهو محق إذ يرفضُ مثل هذا الشَكّ. مصراً على أن الماضي يخبر وكذلك يُنيرُ الحاضر، وإهمالنا إياه يعرضنا الدرس المأساوي للثورةِ الفرنسيةِ، الذي يُؤكّدُ أندرس أن هذا وقته الصحيح. وهو "أنّنا يَجِبُ ألا نفترض أننا مستقيمون، وأعداؤنا أشرار".

.....إن احترام حقوقِ الإنسان العالميةِ التي قاتل الثوريون في فرنسا وأمريكا بصعوبة جداً لتأسيسها في القرن الثامن عشر، لا يجوز التخلي عنها أبداً. ....قصّة كيف أن المشروع الثوري لبناء نظام حكم مستند على حقوق الإنسان انتهى في فرنسا إلى خطأ كارثي له تأثير سحري لا نهائي. "الكلمات التي قلناها لن تنسى أبدا" قالها القديس جوست أحد الثوريين الأكثر وحشيةً، على منبرِ الخطابة – وكَانَ ما قاله صحيحاً. في الطريق إلى إعدامه، في السابعة والعشرين من عمره، يقال إنه أشارَ إلى إعلانِ حقوقِ الإنسان المعلق على حائطِ لجنةِ السلامة العامّةِ، وقالَ: "مع ذلك، أنا فعلت ذلك"! لكن عظمةَ مثل هذه الإنجازِ الباقي تلقي عليه الأعمال الوحشية التي تلته ظلالاً قاتمة. القديس جوست، كان دائماً مع صديقه روبسبيير، أحد مهندسي الإرهاب يدافع عنه كشكل لـ "عدالة صلبة ناجزة" والطريق

الوحيد لحماية الثورة من أعدائها. وقد شرع هؤلاء الرجال "قانون الاشتباه" الفظيع، الذي نظم كل النبلاء السابقين والنساء والأطفال الذين لا يستطيعون إثبات ولائهم للجمهورية، وأي شخص آخر عبر عن معارضته للثورة. وفي السجن، كان طريقه إلى المقصلة قصيراً.

وأندرس يضع هذه الأحداثِ المريعةِ ضمن سياق صراعات الأهلية والأجنبية التي كَانتْ – بقسوة – تمزق الجمهورية الوليدة إرباً. دَخلتْ فرنسا الثورة حرباً مع النمسا في أبريل 1792، قبل شهور فقط من انهيار الحكم الملكي وإعدام لويس السادس عشر لاحقاً؛ وفيما بعد انخرطت معظم بقية أوروبا في الحرب، مدفوعة باشمئزازها من مشهد إعدام الملك.

في هذه الأثناء، كانت قوات الثورة المضادة، بتشجيع كهنة عنيدين، كانت تتجذر في الأقاليم. الثوريون في باريس احتاجوا جيشاً لخَوْض هذين الحربين، ولم يكن واضحاً من أين يجئ، من يستطيع تدريبه وتنظيمه، كيف يمكن تموينه، أَو من يمكن أن يؤتمن على قيادته. وقد ارتجلوا: بعض الجنود المحندين حديثا دخلوا المعركة حفاة، بعضهم بدون بنادق، والبعض كانوا نساء متنكرات.

بيرنارد أيرلند في "سقوط تولون"، أعاد بتفصيل ساحر بناء ذروة هذه الحروب الثورية. في صيف 1793 استسلمت القاعدة البحرية الكبيرة في تولون للبريطانيينِ. وكادت الثورة تنتهي الثورة لو لم يقاتل الجيش الجمهوري بضراوة لصد الغزاة، وكان ضمن صفوفه ضابط المدفعيةِ الشابِ نابليون بونابرت.

وعلى خلفية المناخ الذي حاصر باريس من الخوف والذعر وجنون الارتياب المتزايد انقسم الثوريون على أنفسهم. وكانت للفئات المختلفة تصورات مختلفة عما يجب أن تكون عليه الجمهورية الجديدة، وأصبحت خلافاتهم قتالاً حتى الموت.

وانتصر روبسبيير على رأس حزب يدعو لمعاداة المسيحية. لكن عندما حاول تأسيس دينه الخاص "عبادة الكائن الأسمى" بوصفه ديناً رسمياً جديداً أكثر نقاءً، لطخ أوراق اعتماده الجمهورية:

"انظر إلى التافه؛ أنه غير مكتف بأن يكون سيداً، هو يجب أَن يكون إلهاً"!

هكذا علق ساخراً شخص ما بين الجمهور المحتشد.

انتهى الإرهاب رسمياً بسقوط روبسبيير وإعدامه، ومعه القديس جوست وأقرب معاونيهم في يوم دافئ في يوليو 1794. لكن انتقام أعداء الإرهابيين الذي أعقبه كان دامياً ووحشياً بحكم حقه الشخصي. إنهاء الإرهاب لم يكن بسيطاً كقتل الإرهابيين، وستستغرق فرنسا سنوات فرنسا للعودة لشكل مستقر من الحكم.

TIMES – June 11, 2005
Heads, you lose
The Terror: Civil War in the French Revolution
By David Andress
Reviewed by Ruth Scurr

الإرهاب: حرب أهلية في الثورة الفرنسية

مراجعة: أندرو روبرتس

الصّنداي تايمز

19 يونيو 2005

في الثالث من سبتمبر 1792، ماري تيريز لويز دي كاريجنان سافوي أميرة لامبال، صديقة الملكة ماري أنطوانيت، تم أخذها خارج سجن لا فورس الباريسي وقطع رأسها على يد الغوغاء؛ ثم تم عرض الرأس في الشوارعِ مُثبَّـتاً على حربة.

للأيام الثلاثة التالية، في جميع أنحاء العاصمة، بين 1200 و1500 مِنْ سجناءِ الجمهورية الفرنسية الجديدةِ قُتِلوا بقسوة بعد جلسات محاكمة قصيرة في "محاكم" متحيزة متعطشة للدماء، في ما أصبحَ يعرف باسم "مذابح سبتمبر".

وأولئك الذين كَانوا مرعوبين من الإرهاب بحيث لم يستطيعوا الرد على أسئلة المحكمة أو لا يستطيعون الوقوف على أقدامهم دون مساعدة، تم تجريدهم من أشيائهم الثمينة ودفعهم خارج الباب ليذبحهم جلادوهم حتى الموت، حيث ضربهم جلادوهم ببساطة حتى الموت، قبل قذفهم في حفر الجير الحي.

رغم ذلك:

هل كان الإرهاب (تلك الفترة من الثورة الفرنسية بين 1792 1794 عندما سيطرت المقصلة على راية الحرية بوصفها العلامة المميزة للفترة) انحرافاً عن الثورة؟ أَو كان التعبير الأكثر حقيقيةً والأكثر صدقاً عنها؟

أكانت هاتان السنتان كثورة داخل الثورة نتيجة شِبهَ حتمية لمحاولة مأساوية لإحداث تغيير ضخم، اقتصادي وسياسي واجتماعي في مجتمع أوروبي عريق مثل النظام القديم؟

هذه هي الأسئلة التي يركز عليها ديفيد أندرس في هذا العمل الجيد بحثياً، المكتوب جيداً، الراقي في طبيعته التنقيحية. وحقيقة أن الأجوبة التي يقدمها خاطئة تماماً لا تقلل بأي حال من متعة قراءة وجهات نظره الصريحة.

أندرس بشكل مؤثر يلوم الشابة الفقيرة أميرة لامبال على مصيرها أكثر من الغوغاء الذين احتزوا رأسها. وهو يبرر مذابح سبتمبر ذلك أن:

"الناس مارسوا بقوة حق الدفاع عن النّفسَ ضد هؤلاء الذين شعروا أنهم وشوا بهم للثورة المضادة. وفي المقابل، فإن الانتفاضة الجماهيرية التي وسمت هذه الفترةِ سَتَكُونُ الذخيرةَ التي يحتاجها أعداء الشعب، من كل الشرائح، ليدينوا بشكل مطلق الارتباط الوحشي بسياسات نخبتهم".

بتعرية غضبهم السريع المثير للسخرية ("نخبتهم")، بلغة ديف الإسبرطي ("أعداء الشعب") ويراوغ ("شعروا أنهم")...

وما يجادل عنه أندرس حقاً هو أن الإرهاب كان مبرراً لأن الأرستقراط عارضوا الثورة. ورغم أنه صحيح تماماً أن مؤيدي النظام القديم خارج فرنسا تمنوا، إلا أن ما أضر بها فعلياً هو ما فعله نزلاء السجون الكبيرة: شاتلييه، كونسيجري، وهكذا؟ حتى إذا كان "الشعب" يوجد كمفهوم، هل كانوا حقاً بحاجة إلى "حق الدفاع عن النفس" ضد أولئك الذين كانوا يعيشون في الزنازين؟

في سجن سالبترييه يُسجل أن نساء قتلن، وبشكل واضح في إطار الدفاع، يجادل أندرس بشكل مخيف، عن "حرية بلادهم" وعن "سيادة شعبية مباشرة فعالة".

ولا يمكن إنكار أن لويس السّادس عشر أساءَ إدارة الثورةَ بالكامل، خصوصاً عندما حاولَ الهُرُوب من البلاد في يونيو 1791، لَكنَّه لا يُمْكن أنْ يُلامَ – مثلما يلومه أندرس ويلوم أنصاره – على رعب الإرهاب الذي ارتكبه الغوغاء أعداؤه، (الذين تم تصويرهم دائما بوصفهم "حشوداً" من الناس العاملين العاديينِ وعوائلِهم). روبسبيير ومعاونوه اليعاقبة لم يكونوا رد فعل بسيطاً لحماقات البوربون السياسية، بل كانوا يُحاولونَ بشكل نشيط أَنْ يَخْلقوا ما سماه "فضيلة" رمزيّةً، ذاكراً: "التخويف بدون فضيلة كارثي؛ الفضيلة بدون تخويف ضعيفة." كان هذا لبناء عالم جديد شجاع وصنع قطيعة حاسمة مع ما قبل 1789، حيث ألغتْ الثورةَ الأحدَ والمسيحيةَ، خالقة بدلاً من ذلك تقويماً جديداً يبدأ من "السنة صفر" وديناً رسمياً جديداً. وهي أعدمت الكثير جداً من الناس لأن هذا كان طريق تطهير فرنسا وتنقيتها، وصبغها بالفضيلة.

لذا فإن تركيز أندرس على الخوف من الثورة المضادة هو نصْف الجواب وحسب، وهو النصف الأقل أهمية. الثوريون كنتيجة لجنون الريبة (أو الاضطهاد) كَانوا يَقْتلونَ لأنهم اعتقدوا أنهم كانوا يصنعون عالماً أفضل.

The Sunday Times

19 June 2005

The Terror: Civil War in the French Revolution

by David Andress

REVIEWED BY ANDREW ROBERTS

دعْهم يَأْكلونَ وَحلاً

الأوبزرفر البريطانية

2 يوليو 2005

لم يكن لدى المراهق رامبو إلا أن يكتب في مقال مدرسي عام 1870 "مارات وروبسبيير، الشباب يتنتظرونكما" لترويع معلمي إمبراطوريتِه الثانية. هذان الرجلان كانا، مع ذلك، المصممين الأساسيين (مع القديس جوس) للإرهاب الدامي الذي انحدرت إليه المثاليات العالية للثورة الفرنسية قبل حوالي 80 عاماً – والذي كانت كومونة باريس في 1870 تهدد بتكراره.

بعد سَنَوات قليلة، الجمهورية الثالثة الجديدة كَانتْ تَستعمل شعارات رفعها كل من مارات وروبسبير كشعار: "حريَّة، مساواة، أخوة". الجمهورية الخامسة الحالية ما زالت تبقي عليها.

رغم ذلك باسم هذه المقولات، ومقولات فولتير وتنوير روسو أعدم رسمياً حوالي 17,000 مواطن فرنسي. اعتقلوا وحوكموا وسيقوا للموت في دفعات – في أغلب الأحيان في يوم واحد – وربما رأوا عائلاتهم بالكامل، قبل نصب منصة محاكمتهم، قتلى غارقين في دمائهم.

لا عجب أن الروح المتسامحة لفرنسا لم تصالح نفسها مع هذه اللحظة التاريخية من الجحيم: إنها لم تزل تغني برقة نشيدها، المارسيليز (النشيد الوطني الفرنسي) المرعب.

إذا كان "التأريخ الحديث" بَدأَ في 1789، فهل كان إرهاب 1793 – 1794 ألم مخاض يحدث أم إرهاصاً لأشياء ستأتي؟ في هذا التقييم الشامل، يبحث ديفيد أندرس عن جواب بإخراج الكابوس في ضوء الشمس لرؤيته كحدثٍ عاديٍّ في اجتماع اللجنة وإلى أي حدٍّ يشبه مكتباً سياسياً.

إنّ الاختلاف، بالطبع، هو أن الاجتماع ليس موضوعه إعادة هيكلة الإدارة بل إعادة صياغة العالم. وزملاؤك المزعجون ربما يكونون يصبحون مَوتى بمساعدتِكَ في نهاية اليوم. أندرس يدافع عن أن الإرهابَ ليس جزءاً من البنية الثورية نفسها ولا ناتجاً عن اضطرابات سيكوباثية، بل ردّ فعل للخَوْف.

لقد بدت الثورة على وشك التحطم على يد أعداء الخارج (تحت قيادة بريطانيا والملكيين الفرنسيين المنفيين)، وأعداء الداخل، حيث مناطق كاملة تفضل الشيطان الذي تعرفه:

* الكاثوليكية

* الملكية المطلقة.

وهناك عنصر ثالث كشف عنه التقييم الذكي الخالي من العاطفة:

التنافس المميت.

فالثورةُ – من نواحٍ عديدةٍ – صنعتها الظروف وأشعلها دولة مفلسة وأسعار طعام مرتفعة، مع ملك متردد ونبلاء غلاظ القلوب ليسوا متنورين بقدر يكفي ليتركوا طواعية امتيازاتهم.

منذ ذلك الحين كان يختمر في المنتديات السياسية ومناقشات النشطاء غير الرسميين (يدافع أندرس عن أن الجماهير أبقوا أنفسهم على اطلاعٍ جيدٍ على مجريات الأحداث في هذه الفترة)، وكان حتمياً أن غياب قوة مُخوَّلة يجعل التنوعِ مغرياً بالاقتتال وازدحام ميدان التنافس بين اللجان.

وضمن هذا، اللجنة الشريرة "لجنة السلامة العامة" التي حسمت المنافسة اعتماداً على المحاكم الثورية التي حَرمت الدفاعِ من حق الاستعانة بشهود أو دليل مؤكد.

أما "نور العقل"، فكانت بدعة آخر القرن الثامن عشر المبهجة للوجدان، وقد تجلت قمة بشاعتها في القاضي فوكيه تينفيل المتعصب بشكل مميت، فيكفي "شعوره" ليحدد ما إذا كان المتهم يستحق الإعدام، وكل هذا باسم ما أطلق عليه القديس جوس "المصلحة العامة".

لكن هذا كَانَ الإرهابَ "المتأخّرَ"، عندما التهمت ماكينة القتل أولئك الذين "انتقدوا أتباع روبيسبير حتى تلميحاً"، وفي الواقع كل واحد تحرك. بَدأَ الإرهابُ تقريباً قبل ذلك بعامين في 5 سبتمبر 1793، في يوم أطلق كسوف كبير شفقاً أحمر مخيفاً. في صراعها من أجل البقاء ضد أعدائها في الداخل والخارجِ، رَأت الجمهورية الآن مظاهرة شعبية هائلة ضد ندرة الخبز، الذي استولى عليه المتطرفون العراة بالقوة. الجمعية الوطنية (الكائنة في قصر التويلري سابقاً) حوصرت. وأعلن موفد اليعاقبة:

"هذا وقت تُعمِل فيه المساواة منجلها في كل الرؤوس. لقد حان وقت ترويع كُلّ المتآمرين. ولذا فإن المشرعين وضعوا الإرهاب على جدول أعمال اليوم".

الجمعية الوطنية التي أسست قبل عام كانت الكيان التشريعي الرئيس للثورة. وكانت مقسمة بين الجيرونديين المحبوبين جماهيرياً والمونتجرانديين الأكثر بروداً، المعزولين خلف تطرفهم اليساري، ثم الإنراجيين (بشكل عام) كانوا في مكان ما في الوسط مع جورجي جاك دانتون.

في النزاعِ الدائمِ مع القوى السياسية الأخرى الرئيسة – وضمن ذلك كوميونة باريس – كان جو الجمعية، باعتراف أندرس، "مسموماً". وساعد دانتون في القضاء على الجيرونديين، وبالتالي ساهم في القضاء على نفسه.

. . . .

. . . .

دانتون كان "البطل" الحقيقي الوحيد في الثورة، بالإضافة إلى الصحفي الجذّاب كاميل ديسمولين، نجم رواية هنري مانتل الاستثنائية: " A Place of Greater Safety". . . . .

رغم صوته العالي ونطقه المتصنع وزيه القديم، كان روبسبير خطيباً ماهراً. غير القابلين للإفساد (كما كان معروفاً عنه واستناداً لمبررات حقيقية) استخدموا التحريض والترويع لفرض المساواة الحسابية، وعادة مع المضطهدين بنبرة إشفاق حزينة، وفعلت هذه النغمة العجائب بالمجتمعين.

أغلب هؤلاء كانوا أما صحفيين أَو محامين "غير مميّزين" في الثلاثينات من العمر: إحدى المفارقات التي يكشف عنها أندرس بمهارة أن تم رفضه خطوة بعد أخرى، على يد معظم من سبق لهم ممارسته.

و"عندما يذهب القانون يذهب كل شيء".

على النمط نفسه، الراديكاليون العراة سيئو السمعة الذين سيطروا بدلاً من الجيرونديين، لم يكونوا الهمج والبروليتاريين، كما وصفتهم الدعاية المضادة للثورة، بل عمال مهرة تقودهم "الطبقات السياسية المتعلّمة". إذا كان عُمّالِ باريس وأماكن أخرى (لكن في الغالب باريس) قد ساروا في صفوفهم، فإن هذا ناتج عن الجوع واليأس. الناطق بلسان أيديولوجيتهم القديس جوس، كان نبيلاً سابقاً وسيماً أنيقاً، وهو أعاد صياغة صورته ليصبح جبل جليد. وقد ذهب ليُعدم في نهاية الإرهاب (كان عمره 26 عاما) دون انفعال ظاهر. . .

. . . . السجناءُ المنكوبون مرنوا أنفسهم بكل ذرة في أجسامهم حتى لا يصدمهم مواجهته عندما تحين لحظته. أفراد العائلة المالكة كانوا، للأسف، أبطالاً بارزين قبل المذبحة الوطنية. وقتلهم – وضمنهم وريث العشر ذو الثمانية أعوام، الفقير لويس تشارلز، الذي ذوى وحيداً في زنزانة قذرة مليئة بالفئران – كان

انتحارياً لولا أن "الضرورة" السياسية تطلبته، لأنه وحّدَ بقيّة أوروبا ضدّ الجمهوريةِ. وكذلك إحلال "الكائن الأسمى" محل إله الكاثوليك، الخالق الذي كان يؤمن به "الفاضل" (المستقيم) روبسبيير.

لا أحد من هؤلاء الثوريين كان مهتماً بالنتائج (دانتون كان يزعم أن روبسبيير لا يستطع أن يسلق بيضة)، وكانوا موضعاً للسخرية.

بياناتهم كان بها برود، شفافية تنويرية، تماما كالنازية، وبالتالي كانت أحياناً تبدو مُحلـِّقة في الخيال. دافيد أندرس يوضح أن كلاً من القديس جوس وروبسبيير كانا مفتونين "بفضائلهما السياسية الخاصة"، بالعيش في الفقاعة الأيديولوجية التي في حالة القديس جوس، كانت مخططة على أساس اليتوبيا الإسبرطية.

حيث يفصل الأطفال عن آبائهم في الخامسة، وحيث الرجل يعاقب إذا لم يكن له أصدقاء. ورغم ذلك يشير أندرس – وهو محق تماماً – إلى أن هؤلاء الرجال أنفسهم أنشأوا الجيش "المتطوع" الهائل الذي أنجزَ تقريباً نفس قدر النجاح الذي أحرزه قائده نابليون كما أصبح بعد بضع سنوات فقط (هو كان، بالطبع، ضابطاً في ذلك الجيشِ كما كان جوتة في جيش الحلفاء). وزاد أحوال الجمهورية سوءاً اقتصاد الحرب الذي أخفق بعد الإرهاب في مواجهة المجاعة والصقيع في شتاء **1795** الفظيع. وأيّ نكسة، حتى لو كانت أكذوبة ملفقة، يمكن تحميل وزرها للثورة المضادة. "الحقد" كما كتب ألفونس دودي بعد جيلين، "غضب الضعفاء!".

وحسب مرسوم "الضريبة الجماعية" الصادر من الجمعية الوطنية في أغسطس **1793**، فإن من الواجب "كراهية الملوك"، وكراهية أي واحد لا يحب وطنه حباً كاملاً. ومن السهل أن يكون أي شخص غير وطني. في

بيتِي الخاصِ في Gard، كل مفصلات الدرفة التي تشبه شعار الكشافة الملكي حطم، إمّا مِنْ الحماسِ أَو الخوفِ. في هذه الثورة المعادية للمرأة، إعدام السيدة الجديرة بالإعجاب مدام رولند كان تبريره أن اهتمامها بالسياسة "غير طبيعي" لأنثى.

إذا كان أندرس يؤكد أن: "المثالية الأساسية، على نحو مخيف وضعت في غير مكانها بشكل مشوه على نحو ما أصبحت على يد الثوريين اليعاقبة"، فإنه يعرض أيضاً الغضب الثوري: المستقيم، المسمم الضعيف. لأن الثورة مدهشة في افتقارها لرجال عظماء حقاً. المتعلمون فاقدو الكينونة الذين أخذوا على عاتقهم تنفيذ القتل الجماعي في مناطق مثل Auvergne أَو Vendee العاصية، كانوا جميعاً مثاليين جداً. حتى دانتون، رغم كُلّ ذكائه وسحره القوي، كَانَ عديم الرحمة عند الحاجة، وربما فاسداً بقدر ما هو انتهازي. عندما نصل إلى الثورة المضادة، إرهاب ما بعد

الإرهاب، مع شباب أنيقين يضربون ويقتلون كل شخص يشك في أنه من اليعاقبة بينما الفلاحون جائعون، نحن غالباً نتشوف إلى نابليون بونابرت تماماً كما فعلت فرنسا في الحقيقة.

لنتذكر فاندي

بقلم صوفي ماسون

كاتبة فرنسية استرالية تنحدر من أسرة أصولها من منطقة Longeville في فاندي ولصوفي صلات نسب فرنسية جنوبية، باسكية، إسبانية، برتغالية، اسكتلندية، وكندية. ولدت صوفي في إندونيسيا لكنها عاشت في استراليا منذ سن 5 سنوات. وهي تكتب الرواية والقصة القصيرة والمقال.

النص نشر للمرة الأولى بمجلة "Quadrant" التي تصدر في ملبورن باستراليا عام 1996.

في بداية عام 1794 قرر Robespierre's Convention **إبادة الفنديين (الفانديين) حتى آخر رجل وامرأة وطفل. وإذا كانت الثورة الفرنسية أول أيديولوجية حديثة فإن فندييه (فاندي) تكون مذابح بدائية رهيبة تـُعدُّ من أعمال الإبادة الجماعية.**

حقيقة أن فاندي (فندييه) ثارت كانت معروفة للكافة. وهو ما يدعو للتساؤل بشأن طبيعة ثورتها التي شارك فيها طبقتها الوسطى وزعماؤها. والجمهورية الفرنسية لم تبدأ إلا حديثاً جداً في الاعتراف بالرعب الذي يعنيه أن تكون فاندي (فندييه) أول جريمة إبادة جماعية في العصر الحديث.

المحيط الأطلنطي هادئ بامتداد شاطئه الطويل، وهو يلتوي ويلتف، غير أن موجه لا يهدر بقوة كما يفعل في الجزء الشمالي بامتداد صخوره الرمادية الوعرة، وبامتداد الشاطئ غابات صنوبر وعرة وفي العمق غابات أخشاب وأنهار بطيئة وحقول صغيرة. . . . السماء هنا ضخمة تعانق الأفق. .. . وعلى امتداد الشاطئ نجد آثار أقدام تعود لماض سحيق، آلاف من الحيوانات المتحجرة مطمورة في الصخور الناعمة. القرى والمدن صغيرة منطوية على كنائسها الرمادية وصخورها الصامتة. وفي كل مكان كل مكان ذكريات الرعب والموت حاضرة في صفوف لانهائية..........

أريد أن أحكي قصتي. ذات يوم كان هناك أرض غنية جميلة بعيدة، أرض أسرار وأغاني، أرض غابة ومحيط ونهر، وأهلها كانوا يعيشون كما اعتادوا في أرضهم ومعها، وفي ثقافتهم العميقة التي لا يسمونها ولكنهم يعرفون أنه جزء منهم. وعندما جاءت الطرق الجديدة في البداية لم يفعلوا شيئاً، لكنهم سرعان ما فهموا ما

تعنيه هجمة الطرق الجديدة والناس الجدد والأفكار الجديدة.

انتهاك أراضيهم وعقائدهم، بل أرواحهم، وما كان يمكنهم أن يقفوا ساكنين وهم يرون ذلك، سيقاومون للأبد إن لزم الأمر. (القادمون) المتطفلون بدورهم كانوا يعتقدون أنهم أحضروا معهم:

*** التقدم**

*** التنوير**

*** الفكاك من أسر الخرافات**

*** الحرية**

*** الإخاء**

*** المساواة.**

وسوف (يسحبون) يدخلون هؤلاء البدائيين العصور الحديثة، حتى لو كلفهم هذا بضع معارك. هؤلاء البدائيون أنصاف البشر سيصبحون عما قليل في تسابق مميت.

لكن هذا لم يكن سهلاً، فالناس قاوموا بشراسة وانتصروا أحياناً، وشعر المتطفلون بالرعب الشديد فعلاً أحياناً، لكن سرعان ما كان هناك نقص في الرجال مقابل تقنيات متفوقة، وأيضاً – وهذا يجب قوله – استقلالية البعض جعلتهم يجدون العمل ضمن جماعة متحدة أمراً صعباً، وكان هذا مؤثراً في شجاعتهم وعقيدتهم.

ولم تكن هناك ثقافة عسكرية إذ كانوا يعيشون لزمن طويل في حالة سلم. وعندما اكتشف (المتطفلون) ذلك، عندما هزموا الناس أوحى لهم هذا بأكثر الأفكار وحشية، فهذا التسابق للموت يمكن استغلاله، وهكذا بدأت الإبادة الجماعية.

البشاعة المضاعفة، الإبادة المنظمة بدأت من أعلى القيادات وجرى تنفيذها بسعادة في أدنى المستويات، على الأقل **300** ألف إنسان أبيدوا – بلا رحمة – آنذاك.

وبعض الجنود الذين رفضوا القيام بالمهمة اغتيلوا مادياً أو معنوياً. لكن الناس ظلوا يقاومون. فبعضهم اختبأوا في الغابات ونصبوا الأكمنة وقد حاربوا ببسالة مثالية، لكنهم عند القبض عليهم كانوا يُذبَحون كالخنازير.

وكان الإعدام مصير كل القادة، إما شنقاً أو ذبحاً أو رمياً بالرصاص، بل لم يُترَك بعضهم لينام في قبره في سلام. وجثة آخر قائد تم إعدامه قُطِّعَت ووُزِعَت على العلماء، أما رأسه فتم "تمليحها" في إناء زجاجي. أما مخه فتمت دراسته لمعرفة أين توجد بذور العصيان عند البدائيين.

كان هذا منذ مائتي عام، لكن في الحاضر احتفل المتطفلون بالذكرى المائتين دون إشارة لـ "الموت" ودون إشارة للإبادة الجماعية، إنهم الضحايا أنفسهم هم الذين تذكروا.

. . . .

والآن هناك اسم لهذه الثقافة التي قاومت وهذا الاسم هو فاندي (فندييه). ... إنها قصة التاريخ الفظيع لأهل غرب فرنسا فاندي (فندييه) وبريتاني، فأثناء الثورة الفرنسية حدثت قصة فيها البطولي والبشع تخلفت من رماد فاندي (فندييه).

وهي قصة كانت حتى وقت قريب موضوع قمع وإنكار، وبتوالي الأكاذيب أصبح كثير من الفرنسيين لا يعرفون عنها شيئاً، وحدهم أهل فاندي (فندييه) وبريتاني احتفظوا بها حية، ولم ينسوها أبداً.

ومؤخراً، وحسب خلال السنوات القليلة الماضية، أقيمت نصب تذكارية للضحايا أقامتها الحكومة المحلية وليس الحكومة المركزية. وحديثاً جداً، بدأت الجمهورية الفرنسية تتحدث عن احتمال أن يكون هذا الترويع أول جريمة إبادة جماعية في التاريخ.

. . . . . .

في 1789 بدأت الثورة الفرنسية الثورة، التي كانت في البداية مفعمة بالتفاؤل وأمنيات الإصلاح الحقيقية، ولم يعارضها حتى الملك لويس السادس عشر.

وكانت شعاراتها: التنوير، الإنسانية، الحرية، الإخاء، والمساواة مما لا يمكن أن يعارضه أحد، وكان المعارضون قليلين وكان فلاحو غرب فرنسا الأقل بينهم، بل رحبوا بالكثير من التغييرات وبينها إعلان حقوق الإنسان.

في 1790 ظهر تـَصدُّع إذ ألغيت اجتماعات السلطات الإقليميّة، وتعرَّى الناس من حكوماتهم المحليّة. وجرّد رجال الدّين من سلطاتهم ومعظمهم كان الناس يختارونهم وليسوا معيّنّين بواسطة الكنيسة. كان معنى هذا عمليّا أن برجوازيّ المدن حلوا محل الكهنة المقدسين الذي اختارهم الفلاحون.

بدأت فاندي (فندييه) وبريتاني ونورماندي التحرّك ضد هذا؛ كانوا مرتبطين بكهنتهم الخاصّين جداً وقاوموا فرض آخرين. بعد سنة ثارت قلاقل في بريتاني وفي 1792، اكتسب اليعاقبة المتطرّفون بزعامة روبسبير قوة......وبدأ الرعب.

غير أن حدثين شهدهما العام 1793 قذفا فرنسا في آتون حرب أهلية، وما زالت عواقبهما ماثلة في فرنسا حتى اليوم، وهما:

* إعدام لويس السادس عشر.

* لاحقاً إعلان فرنسا الحرب على بقية أوروبا.

ونتيجة لذلك أراد "الثوار" إلزام الفلاحين بالتجنيد الإجباري لـ 300 ألف منهم، لقد أراد الثوار أن يدفع الفلاحون ثمن إجرامهم الأحمق!

واندلع التمرد فوراً في فاندي (فندييه) وبريتاني ونورماندي، لكن مركز التمرد كان فاندي نفسها. كان هذا تمرداً شعبياً تاماً، كان الفلاحون أنفسهم من أخذ زمام المبادرة وهم قام – لاحقاً – بإقناع بعض النبلاء المحليين ممن كانوا ضباطاً بالجيش بقيادة بعض وحداتهم.

الجديد أن رد الفعل الجمهورية الأولى كان فورياً، سيكون قتالاً حتى الموت.

. . . . ولم تبخل الجمهورية بمالها ولا جنودها في سبيل سحق المتمردين.. . . وفي بداية 1794 قرر المؤتمر (مؤتمر اليعاقبة) إبادة فاندي (فندييه) حتى أخر رجل، امرأة، وطفل. وقد وجدوا من يسعده تنفيذ ذلك.

"لا يبقى رجل حياً"

"وحدها الذئاب ما يجب أن يبقى في أرضهم".

"نار، دم، موت، هو ما نحتاجه لحماية الحرية".

"ممتلكاتهم ومعتقداتهم المتعصبة يجب تحطيمهما".

تلك كانت بعض الكلمات التي وردت في مؤتمرهم عن فاندي.

وأطلق علماؤهم المدجنون (المتواطئون) الخيال لكل الأفكار الجديدة، تسميم الدقيق والخمر وموارد المياه،.. . . . البحث عن طرق لحرق أكبر عدد من الناس في فرن كبير يكون قادرة على إذابة شحومهم بكفاءة.

........واحد من الجنرالات الجمهوريين (Carrier) كان مستهزئا بهذه الأبحاث، فهذه الطرق "الحديثة" سوف تستغرق وقتاً طويلاً. الأفضل أن نستخدم طريقة أكثر عراقة (فيها قداسة القدم) للإبادة: قداس تعميد لرجال ونساء وأطفال عراة، والأفضل تكبيلهم جماعياً فيما أسميه: "زواج جمهوري"، وفي قوارب نشيدها لذلك ويتم جرها إلى منتصف نهر اللوار، وعندئذ يبدأ قداس طعن بالحراب للرجال والنساء والأطفال، تحطيم رؤوس الصغار بضربها بالجدران، مذبحة بإطلاق قذائف المدفعية على المكبلين، أقصى أشكال التعذيب المروع، وإحراق ونهب

القرى والمدن والكنائس.

ولم يكن هناك حتّى أيّ ادعاء أو تظاهر بالتمييّز بين المقاتلين والمدنيّين، وحتى الآن سجلات الجيش في فينسينيس تحكي القصة الباردة، القبيحة، وقد تكررت مراراً وتكراراً في قرننا الفظيعِ.

الجنرالات يتحدثون ببرود عن "الأهداف المنجزة"، "الإبادة بلطف"، إبادة جماعية بشكل منظم ومستمر وبصرامة.

التأريخ الاقتصادي للقرن العشرين:

الإبادة الجماعية

مسيرة متمهلة نحو المدينة الفاضلة؟

كتب: جي. برادفورد دي لونج(*) (يناير 1997)

هذا الفصل يحملُ رسالة متجهمة مظلمة: فالتحسن الملحوظ في القدرات التقنية الإنتاجية للإنسان والقوى التقنية والتنظيمية ظهرت خلال القرن العشرين فعليا خالية من القيم. القرن الذي قد شهد النمو الاقتصادي الأسرع والمجتمعات الإنسانية الأغنى على الإطلاق شهد أيضاً أعظم جرائم الإبادة الجماعية على نحو مضاعف. الجرائم الأكبر في التّأريخ الإنساني. والمجرمون الأكثر بشاعة على مدى التاريخ، عاشوا خلال المائة سنة الماضية.

تُقدّمُ الجداول التالية بضعة تقديرات من: R.J. Rummel's Death by Governments وهو كتاب أخذ على عاتقه مهمة متجهمة هي مُحَاوَلَةِ تقديم حساب تقريبي لضريبة الموت العنيفة تقريباً في القرنِ العشرين. ورروميل يستثنى من إحصاءاته لضحايا الإبادة القتلى الذين حصدتهم الحروب وكذلك من ماتوا بشكل "عرضي" من المدنيين في أوقات الحروب (وهي: الوفيات نتيجة ما يمكن تصنيفه عمليات عسكرية ضد القوّات المسلحة للعدو. أما التدريبات العسكرية مثل القصف العسكري اللّيلي البريطاني للمدن الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية فيحسب ضمن حلقات الإبادة الجماعية). تقديرات روميل لضحايا الإبادة الجماعية هي فقط لمن قتلتهم حكومات في غير أوقات الحرب أو بعيداً عن خطوط القتال. بعض من التقديرات صلبة، بعضها مهتز، بعضها تخمينات طائشة، بعضها لا تعد تقديرات بالمرة، وهو لم يستند إلى شيء نعرفه فيما ذهب إليه عن كوريا

الشمالية خلال السنوات الخمسين الماضية، وروميل وتخمين روميل – هو لا يعتبره تقديراً – مبني على القول بأن كوريا الشمالية لم تتحسن وهي أسوأُ الآن من البلدانِ المماثلة من حيث الأيديولوجيا ودّرجة العزلة المفروضة ذاتياً.

أَعتقدُ أن بعض التقديرات عال جداً، وبعضها منخفضُ جداً (لدي شكوك في أن إحصاءات الصين الشيوعية وألمانيا النازية يجب تغييرها). لكن تقديرات لا تفتقر لأدلة وفي المتوسط ليس لدي سبب للاعتقاد بأنها تحيزات متعمدة.

الوفيات نتيجة العمليات العسكرية في هذا القرن شنيعة بما يكفي: فالحكومات وجنودهم قَتلوا ربما أربعين ومليوناً من البشر في الحرب، كانوا إما جنوداً شاء سوء حظهم أن يكونوا في جيوش القرن العشرين الضخمة أو مدنيين قتلوا خلال عمليات يعلن القادة أنها استهدفت تقليص القدرة العسكرية للعدو.

المدنيون الذين قتلتهم الحكومات خلال القرن العشرين[75]

([75]) يذهب الباحث كريستان دو بري في مقاله: "الإبادات والجرائم وغيرها من "المجازر الجماعية" إلى أن ضحيا المجازر في القرن العشرين يقدرون بنحو مائتي مليون ضحية: ويضيف: "إنّه تقديرٌ تقريبيّ جداً للمجازر التي ارتكبت على كوكب الأرض خلال القرن العشرين. وهي نتيجة مروعة يجب محاولة تحليلها وفهمها. ولم ينتظر المؤرخون، ولا رجال القانون وعلماء الاجتماع والسياسة حتى نهاية الألفية للقيام بذلك". وحسب دو بري فإن "أول نزعة تصعب مقاومتها، تكمُن في وضع تراتبية للرعب، وفقاً للهدف المراد من منفذّيه، وعدد الوفيات، وأساليب الإبادة والظروف التاريخية: الإبادة الجماعية، الجرائم ضد الإنسانية، جرائم الحرب وغيرها من أعمال "المجازر الجماعية"".

....وهناك إجماعٌ على أن القضاء على ستة من أصل تسعة ملايين يهودي في أوروبا بين 1941 و1945، الذي ارتكبته ألمانيا النازية، بالتواطؤ مع حلفائها، يكاد يعتبر، على الأقل في الغرب، "جريمة الجرائم"، التي لا يمكن تجاوزها ولم يسبق لها مثيلٌ في تاريخ البشرية. قناعةٌ تعزّزت خاصّةً منذ الستينات بفضل عشرات ومئات من الشهادات والأفلام والدراسات التي تواصل عاماً بعد عام احتلال مقدّمة المشهد. ما يؤدّي إلى خطر استنفاد فضاء الأبحاث على حساب غيرها من "الجرائم"؟

وقد "أضحت تسمية "الإبادة الجماعية" هي المرجع الأعلى للرعب الإنساني، ويجري استغلالها لجميع أنواع القضايا. فتأكيد أو نفي إرادة الإبادة في المجازر الجماعية التي يرتكبها هذا النظام أو ذاك، تكفي لإدانته بلا هوادة أو منحه الظروف التخفيفية، والحفاظ على ذكرى الضحايا وحقّهم في التعويض أو تركهم طيّ النسيان. ولكن هل مصير عائلة يهودية من هامبورغ، اقتيدت إلى غرف الغاز ومن ثم أحرقت في أفران أوشفيتز، هو أكثر بشاعةً من تلك العائلة الألمانية المجاورة والتي مات أفرادها اختناقاً من الوهج المحرق للقنابل الفوسفورية الملقاة من قبل الإنكليز والأميركيين قبل أن تتفحّم في المأوى حيث لجأت؟ هل يجب إذاً القول أن الحظّ (أو "البليّة") قد حالف العائلة الألمانية تلك لأنها نجت من الإبادة الجماعية؟ وهل تسمح لنا معاملة المسؤولين بطرقٍ مختلفة، بترتيب الرعب الذي عانت منه الضحايا؟"

وفي مسلك تبريري واضح يقول دو بيري إن: "توصيف "الإبادة الجماعية" قد استخدم كثيراً، وبخاصة لتشويهٍ قاطعٍ لسمعة الاتحاد السوفييتي – من خلال المساواة بين النازية والستالينية – كما الصين الماويّة. وفي هذا السياق، وصلت الأمور إلى حدّ المصادقة على حتميّة وصول أيّ حركةٍ ثوريةٍ جذرية تتحدّى النظام القائم، نحو الشمولية التي تحمل في طيّاتها بذور ممارسات الإبادة الجماعية. وفي محاولة للتهرب من التصلّب القضائي ومن المزالق السياسية والأيديولوجية، تمّ البحث عن مفهومٍ سوسيولوجي في علم الاجتماع محايد وشامل. على غرار ما فعله جاك سيملان، الذي وبعد تحليلٍ دقيق، يقترح الرجوع إلى مفهوم المجازر الجماعية، وتوصيفها بـ "سياقٍ منظّم لتدمير المدنيين يستهدف على حدٍّ سواء الأشخاص وممتلكاتهم" بهدف إخضاع، واستئصال أو تدمير المجموعة المستهدفة. وبما أن الكاتب (دو بيري) هو أيضاً مؤسسٌ للموسوعة الالكترونية حول "العنف الجماعي"، قد يظنّ المرء أنه تجّنب المزالق وأوجه الغموض التي يدينها ويستنكرها. لكنّ اقتراحه يثير تساؤلات أكثر من تلك التي يحاول حلّها.

ومرة أخرى يحاول دو بيري تبرئة "النظم الشمولية" من مسئوليتها عن جرائم الإبادة الأكثر شاعة في القرن العشرين، وهو ملمح مهم من ملامح الاختلاف بين الرؤيتين الفرنكفونية والإنجلو سكسونية للظاهرة، يقول دو بيري: تبدو "السواطير" أيضاً مدمّرة كما غرف الغاز وقاذفات القنابل أمّا النزعة الثانية التي يستسلم لها المؤرّخون فتقوم على انتقاء المذابح وبالتالي الجناة كما الضحايا، بالتركيز أوّلاً على القرن العشرين على حساب القرون السابقة؛ مع فكرةٍ مفادها أنه يمثّل "عصر التطرّف الأسوأ" وبروز الدول الشمولية، ووسائل التدمير الجماعية التكنولوجية والبيروقراطية التي مكّنت من إرتكاب تدميرٍ لم يسبق له مثيل. لكن هذا ليس بالأكيد. فنحن نعلم أن آخر الإبادات الجماعية في القرن العشرين، هي التي ارتكبت بحقّ التوتسي في رواندا، وقد وقعت في مناطقٍ ريفيّة تعتنتق المسيحية بشغف وخالية من أي وسائلٍ تكنولوجية. وقد سقط، في ثلاثة أشهر بين أبريل ويونيو **1994** ما يقارب **900** ألف ضحية. هكذا أظهرت "السواطير" فعاليّتها وسرعتها تماماً كغرف الغاز أو موجات القصف الجويّ المكثّف. أمّا بالنسبة لنحو **200** مليون من ضحايا المجازر في القرن الماضي، فإنّها تمثل نسبة حوالي **2**٪ من البشر الذين عاشوا خلال هذه الفترة. ومن المرجّح جداً وجود نفس النسبة المئوية لضحايا الإبادات في القرون السابقة.

وآخر محاولة في البحوث التاريخية عن المجازر تقوم على فصلها عن الواقع الاجتماعي والاقتصادي ودراسة حالتها في خصوصيّتها، وكأنّها مفصولة عن التاريخ وتشكّل نوعاً من الشذوذ والوحشية الهائلة وينبغي دراستها على حدة. ليس بسبب عدم معرفة السياق التي حدثت فيه عمليات القتل تلك والذي من خلاله يمكن تحليلها وتفسيرها، ولكن في سبيل تأكيد ما تمثّله هذه العمليات من قطيعة نسبة للاستمرارية التاريخية الطبيعية.

وفي أحد هوامش المقال لا يخفي الباحث الفرنسي أن مشروعه الموسوعي هو محاولة لكسر ما يسميه "الاحتكار الانجلوسكسوني"، يقول دو بيري: "مع إطلاق هذه الموسوعة التي تتناول مجازر وإبادات القرن العشرين، يسعى "مركز الدراسات والأبحاث الدولية في العلوم السياسية" CERI **إلى الحضور في مجال تهيمن عليه حتّى اليوم الولايات المتحدة، ما يبرّر اختيار الانكليزية كلغة مرجع. هذا مشروعٌ طموح، مجانيّ المعلومات، موجّه للباحثين والخبراء والمنظّمات غير الحكومية، من شأنه المساعدة على الوقاية من المجازر الجماعية. وهو على درجة من الخطورة لأنّ الموضوع يبدو مشحوناً بالتحديات الايديولوجية التي يصعب التحرّر منها".(الإبادات والجرائم وغيرها من "المجازر الجماعية" – مقال – كريستان دو بري –** Le Monde Diplomatique - Editions Arabes **– لوموند ديبلوماتيك العربية – ديسمبر 2008).**

الأنظمة السياسية العشرون الأكثر قتلاً

المكان (النظام السياسي)	الوفيات	الفترة
الاتحاد السوفيتي (شيوعي)	61,900,000	1917 – 1990
الصين (شيوعي)	35,200,000	1949 حتى الآن
ألمانيا (الرايخ النازي الثالث)	20,900,000	1933 – 1945
الصين (الكومنتانج)	10,400,000	1928 – 1949
اليابان (إمبريالي فاشي)	6,000,000	1936 – 1945
الصين (حروب عصابات شيوعية)	3,500,000	1923 – 1948
كمبوديا (شيوعي)	2,000,000	1975 – 1979
تركيا (تركيا الفتاة)	1,900,000	1909 – 1917
فيتنام (شيوعي)	1,700,000	1945 حتى الآن
كوريا الشمالية (شيوعي)	1,700,000	1948 حتى الآن
بولندا (شيوعي)	1,600,000	1945 – 1948
باكستان (يحيي خان)	1,500,000	1971
المكسيك	1,400,000	1900 – 1920
يوجوسلافيا (شيوعي)	1,100,000	1944 – 1990

روسيا (قيصري)	1,100,000	1900 – 1917
تركيا (أتاتورك)	900,000	1918 – 1923
المملكة المتحدة (دستوري)	800,000	1900 حتى الآن
البرتغال (فاشي)	700,000	1926 – 1975
كرواتيا (فاشي)	700,000	1941 – 1945
إندونيسيا 1965	600,000	(Suharto) حتى الآن

لكن الأنظمة السياسية العشرون الأعلى قتلاً قتلت – تقريباً – 156,000,000– مدني في هذا القرن. الحروب كَانت خسائرها أقل من ربع هذه ضريبة الموت الباهظة هذه بعيداً عن ميادين القتال وفي فترات السلم، فبعض حكومات هذا القرن أيديها ملطخة بدماء:

* أعداء طبقيين
* أعداء عرقيين
* أعداء سياسيين
* أعداء اقتصاديين
* أعداء متخيلين

سمهم أنت، وقد ذبحتهم حكوماتهم بالمعنى الحقيقي.

دعنا نسمي أولئك الزّعماء الذين ذبحت أنظمتهم أكثر من 10 ملايين من إخوتهم في الإنسانية "أعضاء نادي العشرة ملايين".

كل التاريخ السابق على القرن العشرين قد يكون (وقد لا يكون) قَد شهد عضوين فقط من أعضاء "نادي العشرة ملايين":

*** جنكيز خان، حاكم المغول في القرن الثاني عشرِ، الذي انطلق في غزوات دّموية كبيرة من قلب آسيا والصين.**

*** ومؤسس سلالةِ يان الصينية الحاكمة. (رحلات ماركو بولو وصلت بلاط إمبراطور يان، قبلاي خان).**

*** وهونغ كسيوكوان، مفكر الصين في منتصف القرن التاسع عشر الذي أعلن نفسه أخاً أصغر للسيد المسيح وأطلقَ التمرّد المسلح في تيبينج.**

ولا يوجد فردُ بعينه لَعبَ دوراً هامّاً في خلق ونموِ تجارة العبيدِ الأطلسيةِ الحديثةِ المبكّرةِ، أو في استغلال المرضِ على نحو مخطط لإبادة السكان الأصليين في الأمريكتين. أولى هاتين الحلقتين التّاريخيةِ كَانت إبادة جماعية "سوبر" بامتياز الثّانية – ليس على وجه التأكيد – قد تكون فقط إبادة جماعية.بالمقارنة.

القرن العشرون شهد ربما خمسة أعضاء من نادي "العشرة ملايين"، في أولهم بالترتيب الأبجدي:

* أدولف هتلر

* تشيانج كاي شيك

* فلاديمير لينين.

* جوزيف ستالين.

* ماو تسي تونج.

هتلر، ستالين، وماو لديهم أوراق اعتماد تؤهلهم لعضوية نادي الثلاثين مليوناً بل ربما حتى نادي الخمسين مليوناً على نحو جيد. معرفتنا بما حدث داخل الصين، الاتحاد السوفيتي، والرايخ الثالث ناقصة جداً. ونظام دموي أياديه ملطخة بالدم مثل نّظام سوهارتو في إندونيسيا الذي تلطخ يديه دماء حوالي 450,000 شيوعي، مشتبه في أنهم شيوعيون، وآخرون كانوا ببساطة في المكان الخطأ في الوقت الخطأ عند نشأته عام 1965، وربما 150,000 من سكان تيمور الشرقية التي استولى عليها بالقوة منتصف السبعينات، مثل هذا النّظامِ يَجعل قائمة الأكثر في القرن العشرين الأكثر قتلا بالكاد تثير القلق على إبادة المدنيين.

أصول الإبادة الجماعية في القرنِ العشرين

يُرجع البعض بدايات ثقافة الإبادة الجماعية في القرن العشرون، للانقلاب في القواعد التّقليدية للحرب الأوروبية التي ميزت بشكل حاد المقاتلين عن غير المقاتلين. في حرب البوير عند منعطف القرن في جنوب أفريقيا وجد الجيش البريطاني نفسه في مواجهة موجه عنيدة من حرب العصابات هزيمة الجيوش النظامية لجمهورية البوير. الجيش البريطاني رَد باختِراع معسكر الاعتقال كما نَعرفه: تقليل سكان الرّيف وحِشد المدنيين معاً. وانتشر المرض وكانت الوفيات عالية نسبيا رغم أنها الأقل بين كل الحالات المماثلة في القرن العشرين.

الآخرون اقتفوا آثاره في مدح العنف الذي رَافق دائما الاشتراكية في نسختها الماركسية. في كتابات ماركس، المؤسسات السياسية الديموقراطية، الحقوق الفردية، والحوار العام دائماً أقنعة وأكاذيب في غياب المساواة الاقتصادية الجوهرية، ويجب محاربتها بعنف مثل إقطاعيي القرون الوسطى الذين كانوا يذبحون الفلاحين إذا عجزوا عن دفع إيجارات أراضيهم. آخرون يرجعونها (ثقافة الإبادة الجماعية) إِلى الثّورةِ الفرنسيةِ كبرى ثورات القرن الثامن عشرِ، إِلى فلاسفة سّياسيين مثل جان جاك روسو، وإلى الفكرة التي مفادها أي حزب سياسي يمثل الأمة يخوض صراع حياة أو موت مع العدو فلا يجوز النقاش بشأن وسائل الصراع. آخرون يقولون إنها (الإبادة الجماعية) كانت تحدث دائماً، لكن قبل القرن العشرين كانت الحكومات والديانات عموماً بسبب نَقص قدراتها التّنظيمية، كان النقص بالتأكيد حافزاً لإبادة عشرات الملاين من

إخوانهم. كان بإمكانهم إدارة مذابح، تطهير، إحراق ساحرات بشكل جزئي، ووحده غياب تقنيات الاتصال الحديثة والمنظمة ما حال بينهم وبين انتقالهم لهذا الحجم الضخم من مذابح الإبادة الجماعية كالخمير الحمر. كان أسقف كاثوليكي فرنسي هو من قال عندما سئل كيف تمييز الزّنادقة من المؤمنين الحقيقيين في مدينة تم الاستيلاء عليها حديثا، ويقولون إنه قال: "اقتلهم جميعا! الله سيتعرف على عباده".

وهناك بعض الحقيقة في كل من هذه التّفسيرات. كمثال، ممارسة لجنةِ روبيسبير للسلامة العامّة خلال الثّورة الفرنسية في إعدام ليس فقط الزّعماء لكن أيضا أبتاع وعائلات معارضيهم السّياسيين (ممارسة روبسبير انقلبت عليه عندما استخدمها ضده خصومه السياسيون بمجرد أن أمكنهم ذلك)، وممارسات الجيشِ في إخلاء السكان من المناطق المتململة مثل فاندي (فندييه) الفرنسية الغربية، وممارسة إجراء محاكمات معدة سلفاً لإضفاء قشرة رقيقة من "المشروعية" وبناء عليها تنفيذ عمليات قتل سياسي، كل هذه الممارسات تجد أصلها في الثورة الفرنسية.

الحلقتان الرّئيستان الأوليان الإبادة الجماعيةِ في هذا القرنِ، ربما المليون فلاح الذين قتلوا في روسيا في العقدين الأخيرين من حكم النّظام القيصري وما يناهز المليون مدني الذين ماتوا في العام الأخير من حكم الرئيس بورفيريو دياز وسَّنَوات الثّورةِ في المكسيك، ويشبهان إلى حد بعيد الاستعمال التّقليديِ للعنف على يد أرستقراطية لتحافظ على القوة والثروة، والفرق انتشار الكتابة كنتيجة لتقنيات اتصال أفضل وأكثر تنظيماً.

لكن القدرة الأكبر للحكومات على تخطيط وتنفيذ عمليات تطهير، وحدة الصراعات الإثنية وصعود العنف القومي لم تكن كافية معا لإطلاق شرارة الإبادة الجماعية التي شهدها هذا القرن. لقد تطلب هذا وجود حركتين سياسيتين: الشيوعية والفاشية وكلتاهما كانت في صميمها حركة ذات عقيدة اقتصادية.

الشيوعية والنازية

الشيوعية كما نعرف كان مولدها عندما استولي في نهاية 1917 جناح فلاديمير لينين المنشق عن اليسار الروسي "البلشفي" أو ما كانوا أغلبية الحزبِ الدّيموقراطيِ الاجتماعي الرّوسيِ الموحّد، موجهين ضربة لحكومة كيرينسكي المؤقتة. حرب أهلية وحشية تَلت ذلك، فال "بيض" مؤيدو القيصر والأوتوقراطية المحلية يَطلبون استقلالاً فعّالاً، وأتباع لينين ال "حمر" ومعهم قوات أخرى ضالّة، ضمنها جيش تشيكي وجد نفسه في البداية محاصراً ثم حاكما فعليا لسيبيريا، وكتائب يابانية (الولايات المتحدة أرسلت كلا الفريقين العسكرية بهدف تحرير أرض تكون قاعدة للقوات المعاداة الشيوعية، ولتوفير إمددات غذائية لسكان المناطق التي يحكمها الشيوعيون)، وهؤلاء، قاوموا لثلاث سنوات تالية في معظم روسيا.

عندما انتهت الحرب الأهلية كان نظام لينين يحكم. القادة العسكريون للنظام القيصري كانوا أمواتاً أو منفيين في باريس. أي وسط ليبرالِي ديموقراطي ليبرالي اجتماعي تم تطهيره (التخلص منه) على يد "البيض" أو "الحمر" خلال مسار الحرب الأهلية. والمجموعة الصّغيرة نسبياً من الغوغاء الذين تجمعوا تحت راية لينين قبل الثّورة وَجدوا أنفسهم أمام مشكلة إدارة دولة وبناء مدينة فاضلة (يوتوبيا) بمساعدة أولئك الذين قاموا بالدعاية لـ "الحمر" ومن وقفوا ضد "البيض" ومن ارتبطوا بهتلر خلال الحرب الأهلية. أول ما واجه نظام لينين كان ضرورة إزالة الرأسمالية. طبقاً للنّظرية الماركسية التي آمن بها لينين بعمق، الرأسمالية – الملكية الخاصة للأعمال والأرض، والمنفعة الشخصية، كَانت مصدرَ التّفاوت الطبقي أو الاستغلال. لكن كيف يمكنك إدارة صناعة وحياة اقتصادية عبر أصحاب الأعمال ممن تعتمد دخولهم ومستوياتهم الاجتماعية بشكل مباشر على ازدهار المشاريع الفردية، ومثل

هؤلاء لديهم الحافز لأن يصنعوا، الجزء الذي يخصهم من الاقتصاد والقوة المنتجة.

جواب لينين كان أن تنظم الاقتصاد مثل جيش:

*** من أعلى لأسفل**

*** مخطط.**

*** هرمي.**

*** خطط معدة.**

*** مدراء أقل كفاءة ينجزون المهام التي تقررها القيادة.**

وكان لينين معجباً باقتصاد الحرب الألماني المخطط مركزياً في الحرب العالمية الأولى. الأمر الثاني الذي واجه نظام لينين كان تصنيع روسيا. خائفا من أن القوى الصناعية الكبرى قد تقرر أن تزيل نظامه، وبيأس من يدرك درجة تخلفه الصناعي، بدا للينين وأتباعه أن جعل النظام العسكري في خدمة التصنيع كان أساسياً.

الأمر الثالث كَانَ أَن يبقى نظامه. وكما كتب المؤرخ البريطاني إيريك هوبسباوم عن نظام لينين:

"كما يعترف لينين . . . كل ما كنا نسعى إليه هو ما كان في الواقع ... المؤسسة الحاكمة للدولة. ولا شيء غير ذلك. مع هذا، من حَكم البلد في الحقيقة كان ضعف الفئات البيروقراطية الصغار والكبار. . . "

وحتى تبقى حكومة لا يوجد فئات اجتماعية قوية أو جماعات مصالح يربطها بها أسباب للموالاة العقائدية فإن الأمر يتطلب الكثير من القسوة. قمع هائل مورس ليس فقط ضدّ المجتمعِ خارجِ الحزب الشيوعي لكن ضد نشطاءِ الحزب الشيوعي نفسه. أي "اقتصاد بالأمر" ظهر لكونه من متطلبات "حكم بالأمر" أيضاً.

ربح الحزب الشيوعي الحرب الأهلية الروسية كحزب دكتاتوري واحد مدعوم بشرطة سرية قوية وعدوانية، التزمت استعمال الإرهاب الجماعي لقمع أعداء الثورة، ولمنع ظهور ديمقراطية أو حوار داخلي لمناقشة إدارة الدولة وسياستها.

وكما حذرت الماركسية الألمانية روزا لكسمبورغ:

* العملية تبدأ بالحكم باسم الناس.

* ثم إحلال عدالة الحزب الشيوعي محل رغبات الناس.

* ثم إحلال قرارات اللجنة المركزية محل العدالة الثورية.

* ثم إحلال نزوات الديكتاتور محل قرارات اللجنة المركزية.

والدكتاتور الذي ربح الصراع على السلطة بعد موت لينين – جوزيف ستالين –كان شخصية سيكوباتية مصاباً بجنون العظمة، وقد جعل إرهاب لينين يبدو معتدلاً ومقبولاً.

الفلاحون أطلق عليهم النار وماتوا من المجاعة ونفي الملايين منهم إلى معسكرات السخرة في سيبيريا بالملايين في الثلاثينات. عُمّال مصانعِ أطلق عليهم النار أَو نُفُوا إلى معسكرات السخرة في سيبريا لإخفاقهم تحقيق معدلات الإنتاج المفروضة من القيادة. مثقّفون أطلق عليهم النار أَو نُفُوا إلى معسكرات السخرة في سيبيرياِ لأن ولاءهم لستالين غير كاف، أَو لانحيازهم لسياسات أعلنها ستالين في العام السابق وتبين أنها ستؤدي لتغيير بطيء.

نشطاء شيوعيون، بيروقراطيون، وشرطة سريون، أكثر مِن خمسة مليون مسؤول حكومي وأعضاء حزب قتلوا أَو نُفُوا في حملةِ التطهير الكبرى في الثلاثينات أيضاً. كُل أبناء جيل ستالين ممن كانوا في السابق مساعدين للينين رحلوا بنهاية الثلاثينات. المندوبون الـ 1800 إلى مؤتمر الحزب الشيوعي عام 1934، أقل من نصفهم كان على قيد الحياة بحلول عام 1939.

ونحن حقيقية لا نعرف كم عدد الناس الذين ماتوا على يدي النظام الشيوعي في روسيا. بينما يَكتبُ باسيل كربلاي في مجتمعِه السوفيتيِ الحديثِ، نَعرفُ أكثر عن عدد الأبقار والخِراف في الثلاثيناتِ أكثر من معرفتنا عن عدد من ماتوا من معارضي ستالين، الأعداء الوهميون (المتخيلون)، والمتفرجون الذين قتلوا.

آر. جي . روميل يقدر العدد بـ 62 مليون ميت.

وقصّةَ ماو في الصين مشابهة لقصّةِ ستالين في روسيا: نفس الالتزام عديم الرحمة باستِعمال أي وسائل ضرورية لإعادة صنع المجتمع والإبقاء على حكم الحزب الشيوعي، الرغبة نفسها في الهيمنة على كل القوى الاجتماعية الأخرى، وبناء الاقتصاد والحياة الاجتماعية بشكل مركزي ذي تنظيم شبه عسكري، أوهام العظمةِ والشعور بالاضطهاد هي نفسها. مُساعدو ماو كَانوا ربما أفضل مِن مساعدي ستالين في محاولتهم إبعاده عن السلطة بهدوء ليصبح منصبه رمزيا: ليو تشاو تشي ودينج سياو بنج، اعتقدا بأنّهم أنجزوا ذلك إثر النتائج الكارثية التي نجمت عن السياسات الاقتصادية للخمسينات التي أدّت إلى مجاعة ضخمة قَتلت عشرات الملايين. لكن رغبةَ مُساعدي ماو في السيطرة على زعيمهم المذعور أطلقت شرارة الثورة الثقافية، ضربة ماو المضادة التي فيها حشّدَ الشباب والعقائديين المتطرفين ضدّ الهيكل التنظيمي للحزب الشيوعي، وفي النهاية ببساطة زادت الخسائر في الأرواح..

ثالث زعماء الأنظمة السياسية الأكثر قتلاً في القرن العشرين، أدولف هتلر في ألمانيا النازية، ربما لم يجار أياً من نظيريه: ستالين وماو في طول استبداده، لكنه بالتأكيد كَانَ سيدَهم في الشر. صنع جماهيرية على ساحة السياسة الألمانية باستغلال الاستياء القومي من أولئك الذين هزموا ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ومحنة الكساد الاقتصادي العظيم. اكتسب قوة بهزيمة السياسيين اليمينيين الذين أدخلوه الوزارة لزيادة رصيدهم في الشارع..

وبسرعة حول ألمانيا إلى دكتاتورية شمولية مركزية، وكانت فيها، نظرياً على الأقل، كُلّ المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية "منضوية" تحت الحزب النازي. "ما الذي نحتاجه لجعل الصناعة أَو الزراعة جماعية؟ أن نجعل البشر جماعيين"!

وحتى بداية الحرب العالمية الثانية كان الإرهاب، بمعاييرِ القرنِ العشرين، صغيرة نسبياً:

*** قتل**

*** سجن.**

*** مضايقة اليهود.**

*** نشطاء معارضون سياسيون.**

*** شواذّ جنسياً**

*** بعض المعاقين والمرضى العقليين.**

بعد بداية الحرب العالمية الثانية، دارت ماكينة الإبادة وتحركت على نطاق واسع. البعض عملوا حتى الموت في معسكرات السخرة ووضعوا تحت تصرف شركات ألمانية مثل كروب وآي. جي. فاربن.

البعض أطلقت النار عليهم فرق إبادة منتقلة. وكثيرون أطلق الجيش النار عليهم وهم بعيدون تماماً عن خطوط القتال. البعض تركوا للموت في معسكرات الاعتقال. وكثيرون آخرون على خطوط التجميع في معسكرات الإبادة.

بالنسبة لستالين وماو يمكن الإشارة إلى أسباب – أسباب مجنونة وأفكار خاطئة، هذه حقيقة، لكنها رغم هذا تبرر – فتصرفاتهم وأعمال القتل التي قاموا بها يوجد إحساس بأنها في النهاية أهداف نشترك معهم فيها من الازدهارِ العام والتنمية الإنسانية وسبب اختيارهم الطريق الذي يقول عنه الشاعرَ دبليو. إتش. أدن "قبول تحمل الذنب عندما يكون القتل ضرورياً".

وكانت هناك حاجة للثورة الثقافية في الصين لإبقائها بلداً شيوعياً يمكن أن يصبح يوما ما مدينة الحرية والمساواة الفاضلة. ولمنعها من الانحطاط إلى ديكتاتورية بيروقراطية مثل الاتحاد السوفيتي. الذبح الجماعي لفلاحي أوكرانيا، كان ضرورياً لأن زراعةً مستندة على المزارِع الخاصة، والحيازات الصغيرة بدلاً من مزارِع جماعية وزراعة مميكنة تكن أبدا لتنتج الزيادة الإنتاجية الكافية، لإشباع سكان مدن كانت تنمو بسب عملية تصنيع الاتحاد السوفيتي.

هذه التبريرات كانت خاطئة – خاطئة بشكل مجنون – لكن التنمية الاقتصادية وتجنب الاستبداد البيروقراطي أشياء جيدة.

لكن ماذا عن هتلر؟

قتل في معسكرات الاعتقال، معسكرات الإبادة، العمل الإجباري، قتل ستة ملايين يهودي، ومليونين من جنسيات متفرقة في غرب أوروبا، واثني عشر مليوناً تقريباً من أوربا الشرقية بالإضافة إلى الوفيات المترتبة على الحرب العالمية الثانية؟

لماذا؟

لتقليل احتمال أن يكون "العرق" الألماني قد تلوث بفعل الزواج المختلط، ولتوفير "فضاء للحياة" للمزارعين الألمان.

ستالين وماو ما زال لديهما من يدافعون عنهما: الناس الذين يرفعون يدا واحدة معترفين بأنه "ليس هناك شَك في أنه تحت حكم قائد أخر [غير ستالين . . .معاناة سكان [جمهوريات الاتحاد السوفيتي] كَانَ يمكنُ أَن تكون أقل، وكذلك عدد الضحايا"؛ ومن ناحية أخرى يكتبون باليد الأخرى:

أي سياسة للتحديثِ السريعِ في الاتحاد السوفيتي .. . كانت حتما ستكون قاسية، ولأنها مَفرُوضَة قسراً على الأغلبية وتفرض عليهم تضحيات خطيرة، إلى حد ما قسرية. . فهي أقرب إلى عملية عسكرية منها إلى مشروع اقتصادي. من ناحية أخرى. . . التَصنيع الخطر في الخطط الخمسية الأولى (1929 – 41) صنعه كل "الدم، الكدح، الدموع، والعرق"، المفروض على الناس. . .الذين تم تشجيعهم على التضحية بأنفسهم.

هتلر، على أية حال، ليس لديه من يدافع عنه، ليس لديه واحد ليدعي أنه ربما استعمل وسائل مفرطة للوصول لنهايات الجيدة. أهدافه النهائية – النقاء العرقي الآري للشعب الألماني، و"فضاء حياة كافٍ" تحت تصرف الأمة الألمانية لتتمكن من السيطرة على العالم – بعيدة، بعيدة، بعيدة خارج حدود ما يمكن تبريره.

العقيدة الاقتصادية والقتل السياسي

ما الأثر الذي تفعله هذه الدموية السياسية وهذا التاريخ للبوليس السري في بالتاريخ الاقتصادي، بقصة كيف ينتج ناس، ويوزعون ويستهلكون سلعاً يحتاجونها، وأخرى يرغبون فيها لحياة أفضل مادياً.

أولاً، احتمال أن تطرق الشرطة السرية بابك وتَسحبُك للتعذيب والموت تهديد خطير لمستواك المادي. فيلسوفُ القرن السابع عشر السياسي توماس هوبز كتب أن الناس يمكن تحفيزهم بالعصا والجزرة: "الخوف من موت وحشي والطموح لحياة أفضل".

وفي قرن يكون فيه احتمال اختيار شخص عشوائيا ليقتل برصاصة أو ليموت جوعاً على يد الحكومة اقتربت من 5%. وحقيقة النطاق الواسع للقتل السياسي أصبحت سمة مهمة جداً للحياة اليومية، وللحياة المادية الأفضل.

ثانياً، القرن العشرون فريد في أن ما شهده من: حروب، حملات تطهير، مذابح، وإعدامات، كان جزءاً من الصراعات الاقتصادية.

قبل القرن العشرين قتل الناس بعضهم بعضاً لأسباب:

* دينية: أهل الجنة وأهل النار.

* كما قتل بعضهم بعضا في الصراع على القوة: من يكون القوة المهيمنة

* أيضا للسيطرة على الثروات المادية للمجتمع. وهذه الدوافعِ، إلى حدّ ما، مفهومة.

لكن في القرن العشرين وحده قتل الناس بعضهم بعضاً على نطاق واسع لاختلافهم حول التنظيم الاقتصادي للمجتمع.([76])

([76]) في كتابه "عوالم متحاربة" (Worlds at war) درس البروفيسور أنطوني باغدين الذي درّس في أكثر الجامعات تميّزاً: أوكسفورد وكامبريدج وهارفارد، يرسم في حوالي 500 صفحة لوحةً مضخّمة لتاريخ العالم. وحسب باغدين فإن الشعلة انطلقت من طروادة، وظلّت متّقدة بشكلٍ دائمٍ عبر العصور؛ وقد جاء بعد الطرواديين الفُرس، وبعد الفُرس الفينيقيون، وبعد الفينيقيين الإسبارطيون، وبعد الإسبارطيين الساسانيون، وبعد الساسانيين العرب، وبعد العرب الأتراك. ويضيف باغدين أن خطوط المواجهة تغيّرت "وكذلك هويّات الخصوم. إلاّ أنّ الطريقة التي فهم بها الفريقان ما يفصل بينهما قد ظلّت ثابتة، مستندةً كما كان الأمر دوماً على رؤى، على ذاكرات تاريخية متراكمة، بعضها صحيح والبعض الآخر مغلوط كلّياً". ورغم هذا التحفّظ البسيط على الذاكرات "المغلوطة كلّياً"، يستعيد الكاتب، في سياق تحليله، رؤيةً ثنائية الطرف، بدأ فصلها التأسيسي مع المواجهة بين الإغريق والفرس التي رواها المؤرّخ اليوناني هيرودوتوس.

الشيوعية رأت نفسها نمطاً طوباوياً من التنظيم الاجتماعي والاقتصادي، فدخلت صراعاً مميتا مع الأنماط الأخرى "الرأسمالية" و"الإقطاع". ومعارضو الأنظمة كان يجب أن يموتوا لأن وجودهم القوي كان يعزز موضوعية أشكال التنظيم الاقتصادي المضادة، ويمنع إنجاز الازدهار واليوتوبيا العالمية.

وبحسب باغدين، فإن هيرودوتوس قد برهن أنّ "ما يفرّق الفرس عن الإغريق، أو الآسيويين عن الأوروبيين، كان أعمق من نزاعات سياسية صغيرة. بل كان طبيعة النظرة إلى الحياة، وطريقة فهم ما يعني الوجود والعيش كإنسان. وفي حين كانت للحواضر اليونانية، وبشكلٍ أوسع لحواضر "أوروبا"، شخصيّاتها البالغة التنوّع ومختلف أنواع الأنظمة المجتمعيّة، بحيث كان يطيب لها أن تخون بعضها البعض إذا رأت ذلك من مصلحتها، إلاّ أنّها كانت تتشارك في عناصر رؤية العالم. إذ كان بإمكانها جميعها أن تميّز بين العبودية والحرّية، وكانت تتشاطر كلّها فيما بينها ما نعتبره اليوم النظرة الفرديّة إلى البشرية".

(ذاكرة الغرب المكبوتة وتاريخه المشوّه: من معركة "ترموبيل" إلى اعتداءات 11 أيلول/ سبتمبر – Le Monde Diplomatique Editions Arabes **– لوموند ديبلوماتيك بالعربية – يناير – 2009 – مقال – آلان غريش)**

النازية في أصولها كانت "اشتراكية وطنية": حزب العمال الوطنيين الاشتراكيين الألمان. هؤلاء النازيون اعتبروا "الاشتراكيةَ" دلالة قوية على رغبة جدية من ناحية الحكومة النازية في توزيع متساو لأموال من ماتوا في حملة التطهير عام 1934، بعد عام ونصف من قوة هتلر. لكن خطاب معاداة الرأسمالية بقي، وكان من ثوابت الدعاية الألمانية المقارنة الدائمة بين عمال ألمان مهرة وممولين يهود ذوي دم ملوث.

وكان تبرير النازيين لاستيلائهم على السلطة يجد جذوره في كل من: الرغبة في محو عار هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى (معاهدة الحدود المجحفة التي فرضها عليها المنتصرون) وفي الفقر المحبط الذي سببه الكساد العظيم، دافعا جمهورية فايمار الليبرالية للإفلاس السياسي.

العقائد الاقتصادية للشيوعيين والنازيين لم تلعب دورا هاما لا في تعزيز قوتهم ولا الحفاظ عليها. إن رئيس الحزب الشيوعي السوفيتي في قرية أوكرانية يظل متحكما في كل بقرة يملكها مملوكة ملكية فردية أو جماعية...

.........لينين وخلفاؤه واجهوا مشكلة صغيرة في الإبقاء على سيطرتهم السياسية خلال العشرينات، حقبة "السياسة الاقتصادية الجديدة" التي سمح الحزب فيها بإحياء المبادرة الفردية الخاصة. وعيوب محاولة إخضاع الحياة الاقتصادية للتخطيط المركزي الوطني كانت واضحة منذ وقت مبكر في النظام. قوَّة الحكومة النازية اعتمدت على طريقتها في استخدام الشرطة وعلى الإرهاب. نزع ملكية المشاريع اليهودية، جمع معظم الصناعة في يدي الشخص الثاني في القيادة هيرمان جورنج، ومحاولة فرض التخطيط المركزي لأغراض عسكرية لم تُساعد النظام النازي: نجاحه في تعبئة الموارد الاقتصادية الوطنية للحرب العالمية الثانية

كانت أقل مما حقق ستالين في روسيا، وتشرشل في بريطانيا، أَو روزفلت في أمريكا.

لكن هذه العقائد الاقتصادية لعبت دوراً هائلاً في خلق وتنشيط الحركات، وفي توجيه أعمالهم وهم في الحكم.

فيديل كاسترو يحكم في هافانا سواء سمح للمزارعين ببيع محاصيلهم في الأكشاك على الطريق، أو لم يسمح بذلك. سيطرة دينج زياو بنج على الصين لم تضعف قراره أن يكون واقعيا: بإعلانه أن القط الجيد هو الذي يمسك الفئران وليس الذي يتفق لونه مع الأيديولوجيا. القوة، الحالة الشخصية، والخلاص الأبدي لم تكن كان تأثيرها قليلا في التحول السوفيتي للزراعة الجماعية، أو القمع الكوبي للأسواق الصغيرة، أَو كارثة قفزة ماو الكبيرة للأمام.

هذه كانت في معظمها وظهرت بالتأكيد على السطح لتكون محاولات لتغيير الاقتصاد ليلبي الحاجة لإعلان أن هذه العقيدة أو تلك ضرورية.

كوارث القرن العشرين الأخرى كان لها جذور قوية في الأفكار الاقتصادية: من الصعب رؤية الحرب العالمية الثانية في غياب فكرة أدولف هتلر أن الألمان يحتاجون لأرض أوسع سماها "المجال الحيوي" أكثر إذا أرادوا أن يصبحوا "أمة قوية"؛ معتقدا أن المستعمرات وراء البحار أمدت زودت القوى المتنافسة قبل الحرب العالمية الأولى بقوى اقتصادية جبارة.

. . . .

لذا فإن جزءاً مهما جداً من تاريخ القرن العشرين هو حقيقة أن أسباب إراقة الدماء يرجع معظمها للعقائد الاقتصادية، والعقائد المتصلة بالعالم: كيف يعمل، وكيف يجب أن ينظم.

(*) **أستاذ الاقتصاد المشارك – جامعة كاليفورنيا – الولايات المتحدة الأمريكية.**

ممدوح الشيخ.. ..سيرة ذاتية

الاسم : ممدوح محمود محمد الشيخ علي

الشهرة : ممدوح الشيخ

تاريخ الميلاد : 14 / 8 / 1967

الجنسية : مصري

** عضو اتحاد كتّاب مصر.

** كاتب مقال رأي بالدوريات الآتية:

جريدة المستقبل (اللبنانية).

جريدة عمان (العمانية).

جريدة الدستور (المصرية).

مجلة الصوت الأخر (العراق).

جريدة فلسطين (فلسطين المحتلة).

جريدة الوطن (مصر).

أولاً: ترجمات في معاجم وموسوعات

** ترجمة في الطبعة الأولى من: "معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين". (مؤسسة البابطين – الكويت).

** ترجمة في الطبعة الأولى من: "معجم أدباء مصر" (الهيئة العامة لقصور الثقافة – مصر).

** ترجمة في الطبعة الأولى من: "الموسوعة الكبرى للشعراء العرب المعاصرين: 1956 – 2006" – إعداد وتقديم: فاطمة بوهراكة – المغرب – 2009 – برعاية الشيخة أسماء بنت صقر القاسمي.

** ترجمة في الطبعة الأولى من: "معجم الأدباء: من العصر الجاهلي حتى سنة 2002" –كامل سليمان الجبوري – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى – 2002 – 1424 هجرية.

دراسات في الظاهرة الدينية

** المسلمون ومؤامرات الإبادة – مكتبة مدبولي الصغير – مصر – 1994.

** الإسلاميون والعلمانيون من الحوار إلى الحرب

الطبعة الأولى – دار البيارق – الأردن – 1999.

الطبعة الثانية – مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع – الأردن.

** البابا شنودة والقدس: الحقيقي والمعلن – خلود للنشر – مصر – 2000.

** الشعراوي والكنيسة: ماذا قال الأنبا للشيخ؟

(طبعة إليكترونية – e-kutub.com – 2002 – لندن).

(طبعة إليكترونية – e-kotob.com – 2011).

** الجماعات الإسلامية المصرية المتشددة في آتون 11 سبتمبر: مفارقات النشأة ومجازفات التحول – مكتبة مدبولي – مصر – 2005.

** الإسلام في مرمى نيران العلمانية الفرنسية: ما وراء الحرب الأوروبية على الحجاب والنقاب – مكتبة بيروت – مصر/ سلطنة عمان – 2010.

** طارق البشري: القاضي.. المؤرخ.. المفكر.. وداعية الإصلاح – سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي – مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي – لبنان – الطبعة الأولى 2011.

** عبد الوهاب المسيري: من المادية إلى الإنسانية الإسلامية – سلسلة أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي – رقم 7 – مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي – لبنان – الطبعة الأولى 2008.

** مراجعات الإسلاميين (الجزء الأول) – تأليف بالاشتراك – مرز المسبار للدراسات والبحوث – الإمارات – سلسلة كتاب المسبار الشهري – العدد السادس والثلاثون – ديسمبر 2009.

** السلفيون من الظل إلى قلب المشهد – دار أخبار اليوم – مصر – 2012.

مؤلفات إبداعية منشورة

** نقوش على قبور الشهداء (ديوان شعر).

مركز يافا للدراسات والأبحاث – مصر.

الطبعة الأولى 1996.

الطبعة الثانية 2003.

طبعة إليكترونية على nasihri.net – 2004.

طبعة إليكترونية على diwanalarab.com – 2004.

** عاصمة للبيع (مسرحية).

دائرة الثقافة والإعلام بإمارة الشارقة – دولة الإمارات – 2000.

** الحلم المسروق (ديوان شعر بالعامية).

مركز يافا للدراسات والأبحاث – مصر – 2003.

** الندى والموت (ديوان شعر).

مركز يافا للدراسات والأبحاث – مصر – 2003.

طبعة إليكترونية على diwanalarab.com – 2004.

طبعة إليكترونية على nashri.net – 2004.

** القاهرة.. بيروت.. باريس (رواية)

الدار العربية للعلوم – بيروت – 2006.

** أهي القدس؟ – ديوان شعر – مكتبة بيروت – سلطنة عمان – 2009.

** الممر – رواية – مكتبة بيروت – سلطنة عمان – 2009.

مؤلفات أخرى منشورة

** أشهر الأحلام في التاريخ – مكتبة ابن سينا – مصر – 1993.

** التنبؤات والأحلام من الخرافة إلى العلم – دار التضامن – لبنان – 1996.

** ثقافة قبول الآخر – مكتبة الإيمان – مصر – مكتبة جزيرة الورد – مصر – 2007.

** مدخل إلى عالم الظواهر الخارقة – مكتبة بيروت – سلطنة عمان – شركة دلتا – مصر – **2007**.

** التجسس التكنولوجي: سرقة الأسرار الاقتصادية والتقنية (دراسة في المجتمع ما بعد الصناعي) – مكتبة بيروت – سلطنة عمان – شركة دلتا – مصر – **2007**.

** ثقافة السلام – دار ومكتبة الغد – مصر – **2009**.

مؤلفات منشورة ورقياً بالعربية بالتعاون مع شركة createspace بالولايات المتحدة الأمريكية ومتاحة على Amazon.com:

** جمال البنا: تسويق التنوير بلغة الإثارة والإعلان

** مقالات عن الهولوكوست (رؤية إسلامية)

** عبد الوهاب المسيري: حياة وأفكار

** عن التحالف المسيحي اليهودي

** السيف العربي بين جماليات الفن وضرورات الحرب

** الحرية والثقافة لجون ديوي (تحرير ومراجعة)

** كتب قرأتها

** مختصر تاريخ التكنولوجيا العسكرية (وعلاقتها بالأمن القومي)

** الإنحلو فونية القادمة: الجذور والملامح

** التفكيكية: من الفلسفة إلى النقد الأدبي

** الديموغرافيا وصراع الهوية: مسلمو أوروبا نموذجاً

** حوار مع القيادي الإخواني الدكتور سيد عبد الستار المليجي

** حوار مع المستشار طارق البشري.

** هوية مصر الإسلامية: بحث عم الذات أم خوف من الآخر؟

** منافٍ لها تاريخ

** هيكل والإسلاميون

** مدخل إلى ثقافة قبول الآخر

** الإسلاميون والدولة الحديثة

** جبل الدهشة (رواية للفتيان)

** التصوف والفن من منظور فلسفة الدين

** الأفريقانية

** أحمد شوقي: حياته وشعره

** العلم والخرافة والسياسة: بين أوراق نيوتن ورسالة فاسكو دي جاما

** هكذا ساهم العلم في بناء إسرائيل

** لغة السيم (من جهود المعاصرين في دراسة اللغة السرية)

** دراسات في دولة التنظيم السري (ملاحظات تمهيدية)

** (دراسات في دولة التنظيم السري) تنظيم إرهابي سري اسمه الجمعية الفلسفية المصرية.

** العلمانية أهل الإرهاب والاستبداد الحديث (مختارات مترجمة).

** اللوبي الصهيوني: محاولة للفه

مؤلفات منشورة ورقياً بالإنجليزية بالتعاون مع شركة createspace بالولايات المتحدة الأمريكية ومتاحة على Amazon.com ومتاحة على Kindle:

* Democracy Of Blood Weddings!
* Muslims and the West: Every choice is a risk!

تأليف بالاشتراك

** مقاربات نقدية في شعر رمضان أبو غالية – (بالاشتراك مع الأساتذة: صبري عبد الرحمن، أحمد مرسال، سامح القدوسي) من إصدارات نادي الأدب ببيت ثقافة قويسنا – مصر – **2004**.

** حرية التعبير بين القانون العادل والقاضي الظالم – منشور في: بحوث مؤتمر "الأدب وحدود حرية التعبير" – فرع ثقافة المنوفية – إقليم غرب ووسط الدلتا الثقافي – الهيئة العامة لقصور الثقافة – وزارة الثقافة – مصر – **2006**.

** إيران – مصر: مقاربات مستقبلية – (تأليف بالاشتراك – تحرير: توفيق شومان – مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي – بيروت – سلسلة الدراسات الإيرانية/ العربية – رقم **1** – الطبعة الأولى – **2009**.

أعمال حققتها

** ديوان أمير الشعراء أحمد شوقي (الشوقيات) – تحقيق – مكتبة الإيمان – مصر – مكتبة جزيرة الورد – مصر – **2007**.

** ديوان الشاعر حافظ إبراهيم – (تحقيق) – مكتبة الإيمان – مصر – مكتبة جزيرة الورد – مصر – 2009.

أعمال أعدها للنشر أو حررها

اكتشف وأعاد نشر رواية: "اعترافات حافظ نجيب: مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن" للمغامر المصري حافظ نجيب، وهي الرواية التي اقتبس عنها المسلسل التلفزيوني المصري الشهير "فارس بلا جواد". وقد قدم لها وألحق بها دراسة عن حياة مؤلفها.

** اعترافات حافظ نجيب: مغامرات جريئة مدهشة وقعت في نصف قرن (إعداد للنشر).

الطبعة الأولى – 1996 – دار الحسام – لبنان – مصر.

الطبعة الثانية – دار الانتشار العربي – بيروت – 2003.

** حرر (بالاشتراك) موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية" – 8 مجلدات – لمؤلفها المفكر العربي الإسلامي المرموق الدكتور عبد الوهاب المسيري – دار الشروق – مصر – 1998.

** حرر (بالاشتراك) موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية" – لمؤلفها المفكر العربي الإسلامي المرموق الدكتور عبد الوهاب المسيري – نسخة ميسرة ومختصرة (مجلدان) – دار الشروق بمصر بالاشتراك مع مركز زايد للتنسيق والمتابعة بدولة الإمارات – 2004.

** القمة الأمريكية السعودية الأولى: القمة السرية بين الملك عبد العزيز ابن سعود والرئيس روزفلت (البحيرات المرة – 1945) – (تقديم وتحرير ودراسة) – بقلم: الكولونيل: وليم إيدي (أول وزير أمريكي مفوض بالسعودية) – ترجمة: حسن الجزار – مكتبة بيروت – سلطنة عمان – شركة دلتا – مصر – 2008.

** دع القلق وابدأ الحياة – تأليف: ديل كارنيجي – إعداد وتقديم ودراسة – دار الحرم للتراث – مصر – 2009.

** كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس – تأليف: ديل كارنيجي – إعداد وتقديم ودراسة – دار الحرم للتراث – مصر – 2009.

** تربية المرأة والحجاب (ردا على قاسم أمين) – تأليف: محمد طلعت حرب (باشا) – إعداد وتقديم ودراسة – دار الغد للنشر – مصر – 2009.

أعمال تحت الطبع

** الهولوكوست النازي: خطأ الإنكار وخطيئة الاحتكار (رؤية إسلامية) – مكتبة بيروت – سلطنة عمان – شركة دلتا – مصر.

** الأقباط والدولة والغرب: من الصياد ومن الفريسة؟

** الرتاج – رواية.

** الوصايا.

** الشعراوي والكنيسة: ماذا قال الأنبا للشيخ؟

أفلام تسجيلية:

* دولة المنظمة السرية – الفكرة والإعداد والمادة العلمية – إنتاج قناة الجزيرة – قطر – 2009.

كتابات نقدية تناولت أعماله

** "ممدوح الشيخ وعماد أو صالح شعاعان من شمس شعر تشرق"، منشور في: "كتابة: رؤى وذات" – صافي ناز كاظم – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر – 2003.

** "مقاربات نقدية في شعر ممدوح الشيخ" – تأليف الأساتذة: رمضان أبو غالية – صبري عبد الرحمن – أحمد مرسال – سامح القدوسي – إصدارات نادي الأدب ببيت ثقافة قويسنا – مصر – 2004.

** "المسرح الإقليمي بين حضور المضمون وغياب الشكل" – الدكتور أيمن الخشاب – دراسة منشورة في: "الأدب والأيديولوجيا" – أبحاث المؤتمر الأدبي السابع لإقليم غرب ووسط الدلتا الثقافي – إصدارات إقليم غرب ووسط الدلتا الثقافي – الهيئة العامة لقصور الثقافة – وزارة الثقافة – مصر – 2006.

** رسالة ماجستير عن مسرحيته عاصمة للبيع في جامعة جنت البلجيكية للمستشرقة البلجيكية ماريكي فان كرايسبليك – 2006. (قيد الترجمة)

دوريات نشرت دراساته ومقالاته وقصائده:

أولا: دوريات خارج العالم العربي: (**بريطانيا**): جريدة الحياة – جريدة القدس العربي – مجلة الغد العربي – مجلة النور – جريدة المسلمون – مجلة مراصد – جريدة المستقلة – مجلة الكلمة. (**هولندا**): جريدة الاتجاه الآخر. (**قبرص**): جريدة الأيام العربية – مجلة الشاهد. (**مالطا**): مجلة رسالة الجهاد. (**ألمانيا**): مجلة الرائد – مجلة الدليل – مجلة الإسلام وفلسطين. (**أمريكا**): مجلة القلم – مجلة الصراط المستقيم – مجلة الرشاد – جريدة الوطن. (**إيران**): جريدة الوفاق.

ثانيا: دوريات داخل العالم العربي:

(**الإمارات**): جريدة البيان – مجلة تراث – مجلة منار الإسلام – مجلة المنتدى – مجلة شؤون اجتماعية. (**السعودية**): جريدة العالم الإسلامي – جريدة البلاد – المجلة العربية – مجلة الفيصل – مجلة الحرس الوطني – مجلة كلية الملك خالد العسكرية – مجلة الآطام – مجلة أبعاد – جريدة الجزيرة – جريدة اليوم – مجلة البيان – مجلة العالم. (**الكويت**): مجلة الوعي الإسلامي – المجلة الخيرية – جريدة الرأي العام – جريدة الفنون – مجلة قرطاس – مجلة التقدم العلمي – مجلة الفرقان. (**البحرين**): مجلة الهداية. (**قطر**): جريدة الشرق. (**العراق**): مجلة الصوت الآخر – جريدة الاتحاد – جريدة اليومية – جريدة الصباح – جريدة البينة – جريدة المنارة – مجلة ألكسنزان الفصلية – مجلة الأسبوعية – جريدة الصباح – جريدة المدى. (**لبنان**): جريدة المستقبل – جريدة البلد – مجلة الفكر الجديد – مجلة الوحدة الإسلامية – مجلة المحجة. (**فلسطين المحتلة**): جريدة الاستقلال – جريدة فلسطين – جريدة الحياة الجديدة. (**الجزائر**): جريدة الأيام. (**المغرب**): جريدة التجديد. (**السودان**): جريدة الصحافة. (**اليمن**): جريدة الثورة. (**الأردن**): جريدة الغد.

ثالثا: دوريات داخل مصر: مجلات: المختار الإسلامي – المنار الجديد – حوارات المستقبل – منبر الشرق – مراجعات – البداية. جرائد: الجمهورية – الشعب – الأسبوع – مصر – صوت الشعب – الأحرار – العربي – القاهرة – المصري اليوم – نهضة مصر – الدستور – اللواء الإسلامي – جريدة آفاق عربية – الرسالة الجديدة – الطريق – الوفد – الوطن.

جوائز

حاصل على جوائز عديدة عن إبداعه في الشعر والمسرح داخل مصر وخارجها منها:

**** جائزة مؤسسة "اقرأ الخيرية" – مصر – المسابقة الثقافية للشباب لعام 1991 – المركز الثالث في مجال الشعر.**

**** جائزة مؤسسة "اقرأ الخيرية" – مصر – المسابقة الثقافية للشباب لعام 1992 – المركز الثاني في مجال المسرح عن نص ما زال مخطوطاً.**

**** جائزة أفضل قصيدة (المركز الثاني) من "المجلس الأعلى للثقافة" – مصر – 1999 – عن قصيدة "نقوش على قبر شهيدة".**

**** جائزة "الإبداع العربي" من: "دائرة الثقافة والإعلام بإمارة الشارقة" بدولة الإمارات العربية المتحدة في مجال المسرح (المركز الثاني) عام 2000 – عن مسرحية "عاصمة للبيع".**

**** جائزة "أحمد فتحي عامر" في مجال الشعر (المركز الثاني) من "الهيئة العامة لقصور الثقافة" – مصر – الدورة الأولى – 2003.**

** جائزة "أحمد فتحي عامر" في مجال الرواية (المركز الثالث) من "الهيئة العامة لقصور الثقافة" – مصر – الدورة الثانية – 2004 – عن رواية "القاهرة – بيروت – باريس".

** جائزة أفضل قصيدة (المركز الثاني) من "نادي جازان الأدبي" بالمملكة العربية السعودية في المسابقة الثقافية لعام 1423 هجرية – عن قصيدة "بقصائدي ويقيني".

مساهمات أخرى

** مقرر أمانة الدعوة والتثقيف بحزب العمل (1993 – 1996).

** أحد مؤسسي حزب "الوسط المصري" (1998).

** باحث في "المركز الدولي للدراسات" (1998 – 2001).

** مشرف على تحرير الصفحة الدينية بجريدة الدستور – مصر (2005 – 2008).

** شارك في المرحلة الأولى من تصفيات الدورة الثانية من تصفيات "أمير الشعراء" بقناة أبي ظبي (2008).

** شارك في تأسيس "مركز المستقبل للدراسات والأبحاث" – مصر (المدير التنفيذي – سابقاً).

** عضو "المنظمة المصرية لحقوق الإنسان".

** عضو "رابطة الأدب الإسلامي".

** رئيس نادي الأدب ببيت ثقافة قويسنا (2005 – 2007)

** عضـــو نـــادي الأدب المركـــزي بفـــرع ثقافـــة المنوفيـــة (2005 – 2007).

** عضو مؤتمر "أدباء مصر في الأقاليم".

** عضـو الأمانـة العامـة لمـؤتمر "أدبـاء مصـر فـي الأقـاليم" (2006) (2007).

** عضـو أمانـة مـؤتمر إقلـيم وسـط وغـرب الـدلتا الثقـافي (2007).

** منسق "حركة حماية حقوق الناخب" (حماية).

** قُـدِمت ورقته الفكرية: "ماذا أعطى الإسلام للبشرية" في أول مؤتمرات "اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم" (لندن – نوفمبر 2002).

** شـارك فـي العديـد مـن المـؤتمرات العلميـة والثقافيـة فـي: مصر، لبنان، ليبيا، الإمارات، والعراق.

** شارك في إعداد برنامج تلفزيوني تـاريخي باسـم "الفهـرس" يبـث علـى قنـاة دريـم الفضـائية المصـرية تقـديم إبـراهيم عيسـى. (2007)

** أحد مراسلي الموقع الإليكتروني لقناة العربية على الإنترنت (العربية نت)

** عرضـت فرقـة "مسـرح دبـي الأهلـي" الإماراتيـة مسـرحية "مملكة للبيع" (إعداد وإخراج عبد الله صالح) المقتبسة عن مسرحيته "عاصمة للبيع" – دبي – يوليو 2009.

** **مـــدير مكتـــب قنـــاة الاتجـــاه الإخباريـــة (2011 – 2012).**

** **شـارك فـي عشـرات البـرامج التلفزيونيـة والإذاعيـة الثقافيـة والسياسية في مختلف القنوات الفضائية المصرية والعربية، وأهمها:**

فرانس 24 – اقرأ – المنار – العالم – دريم – المحور – النهار – MBC – CBC – شـبكة الأخبـار العربيـة ANN – التنـوير المصـرية – الثقافيـة المصرية – النيـل للأخبـار المصرية – المجـد – الحـرة – نيـو تي في – أوربيت – مودرن – عشتار – أبو ظبي – الدولية – الأسرة والطفل – الثالثة المصرية – The National Broadcasting Network (nbn) – ON TV – Arabic news broadcast (ANB) (مصر) – الخليجية – التواصل – الآرامية – فلسطين اليوم (لبنان) – الحكمة – اللورد – الحدث – آسيا – الكويت – الإخبارية السعودية – بلادي – التحرير.

إذاعة البرنامج العام – إذاعة البرنامج الثاني (مصر) – إذاعة النور – الإذاعة السعودية.

E.Mail: mmshikh@hotmail.com